

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه
ومن والاه، أما بعد:
فإن الإسلام دين يدعو إلى أقوم محجة، ويرمي إلى أشرف
غاية.
وما دعوته إلا هداية الناس إلى سبيل الحق، وتنبيههم إلى مكان
الفضيلة.

وما غايته إلا أن يحيا الناس حياة طيبة في العاجل، ثم يفوزوا
في الآخرة بسعادة خالدة، وعطاء غير مجذوذ في الأجل.
وللحق نور باهر، والفضيلة جمال ساحر، ولكنَّ النفوسَ الناشئة
في بيئة خاسرة، أو الغارقة في أهواء سافلة يقف أمامها الحقُّ
فتخاله باطلاً، وتتعرض لها الفضيلة فتحسبها شيئاً منكراً؛ فلا
يكفي في دعوة الحق أن يطرق الداعي بها المجالس، ويصدع
بكلمة الحق من غير أن يشدَّ أزرها بالحجة، ويتخير لها الأسلوب
الذي يجعلها مألوفة للعقول، خفيفة الوقع على الأسماع.
وفي القرآن الكريم ما يدل على أن الدعوة الصادقة لا يثبت
أصلها، وتمتد فروعها، وتؤتي ثمرها _ إلا أن يقوم بناؤها على
أساس الحجة، ويذهب بها الداعي كل مذهب حكيم، ويأخذ فيها
بكل أدب جميل.

وشواهد ذلك في القرآن كثيرة، قال الله تعالى: ﴿

❶ ❷ ❸ ❹ ❺ ❻ ❼ ❽ ❾ ❿ Ⓚ Ⓛ Ⓜ Ⓝ Ⓞ Ⓟ Ⓠ Ⓡ Ⓢ Ⓣ Ⓤ Ⓥ Ⓦ Ⓧ Ⓨ Ⓩ ⓐ ⓑ ⓒ ⓓ ⓔ ⓕ ⓖ ⓗ ⓘ ⓙ ⓚ ⓛ ⓜ ⓝ ⓞ ⓟ ⓠ ⓡ ⓢ ⓣ ⓤ ⓶ ⓷ ⓸ ⓹ ⓺ ⓻ ⓼ ⓽ ⓾ ⓿ Ⓚ Ⓛ Ⓜ Ⓝ Ⓞ Ⓟ Ⓠ Ⓡ Ⓢ Ⓣ Ⓤ Ⓥ Ⓦ Ⓧ Ⓨ Ⓩ ⓐ ⓑ ⓒ ⓓ ⓔ ⓕ ⓖ ⓗ ⓘ ⓙ ⓚ ⓛ ⓜ ⓝ ⓞ ⓟ ⓠ ⓡ ⓢ ⓣ ⓤ ⓶ ⓷ ⓸ ⓹ ⓺ ⓻ ⓼ ⓽ ⓾ ⓿

النحل: ﴿

وكذلك دعوة النبي " إلى الإسلام؛ فإنها كانت محفوفة بما
يقرب العقول إلى قبولها، وتألّف النفوس إلى سماعها؛ فكان "
يراعي في إبلاغها الطرق الكفيلة بنجاحها؛ فيورد لكل مقام مقالاً

يناسبه، ويكسو كل معنى من المعاني ثوباً يليق به، ويخاطب كل طائفة على قدر عقولهم، ويلاقبهم بالسيرة التي هي أدعى إلى إقبالهم، وأسرع أثراً في صرفهم عن غوايتهم. ولا ريب أن الوعظ عمل جليل، وله في نظر الشارع مقام رفيع.

فالوعظ هو الدعوة إلى ما فيه خير وصلاح، والتحذير مما فيه شر وفساد.

والواعظ هو الذي يرشد الجاهلين، وينبه الغافلين، ويعالج النفوس الطائشة مع أهوائها؛ ليعيدها إلى فطرتها السليمة من الإقبال على الفضائل، والترفع عن الرذائل.

ولكن القيام بهذا العمل جهادٌ يحتاج إلى ألمعية مهذبة، ودراية بالطرق الحكيمة، علاوة على العلم الذي يُميز به بين الحق والباطل، ويفرق به بين المعروف والمنكر.

ثم إن العلم والنباهة، وحكمة الأسلوب لا تأتي بثمرتها المنشودة إلا أن يكون الواعظ طيب السريرة، مستقيم السيرة.

هذه هي آداب الموعظة، وأدواتها على سبيل الإجمال. (1)
أما تفصيل ذلك فسيأتي في ثنايا الصفحات التالية إن شاء الله.

وسيلحظ القارئ الكريم أن بعض تلك الآداب داخل في بعض، وأن بعض الآثار يصلح إيرادها في أكثر من موضع؛ فلهذا قد يُجمل الكلام في موضع، ويُفصّل في موضع آخر. ثم إن تلك الآداب شاملة لأدب الواعظ في نفسه، وأدبه في موعظته، وطريقة عرضه.

وقبل الدخول في تفصيل تلك الآداب يحسن الوقوف على تعريف الموعظة، وورودها في القرآن، وبيان مقاصدها وحكمها. فعسى أن تكون تلك الصفحات نافعة مباركة، وأن يكتب الله لها القبول، ولصاحبها الإصابة والإخلاص؛ إنه سميع قريب،

1 _ انظر إلى كتاب: محمد رسول الله وخاتم النبيين ص 110 _ 111، وكتاب الدعوة إلى الإصلاح ص 64 _ 65، وكلاهما للشيخ محمد الخضر حسين.



والله المستعان وعليه التكلان، والحمد لله رب العالمين.

محمد بن إبراهيم الحمد
1423/8/5
الزلفي 11932
ص.ب: 460
www.toislam.org

تعريف الموعظة

الموعظة في اللغة: مصدر الفعل وَعَظَ.
 قال ابن فارس x =: الواو والعين والطاء كلمة واحدة؛ الوعظ التخويف، والعِظَةُ الاسم منه+(1)
 وقال ابن منظور x =: الوعظ والعظة والموعظة: النصح والتذكير بالعواقب.
 قال ابن سيدة: هو تذكيرك للإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب+(2)
 وقال الراغب الأصفهاني x =: الوعظ زجرٌ مقترنٌ بتخويف، قال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب+(3)

-
- 1 _ معجم مقاييس اللغة لابن فارس 6/ 126.
 - 2 _ لسان العرب لابن منظور 7/ 466.
 - 3 _ معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص 564.

ورود الموعظة في القرآن الكريم (1)

ورد لفظ الموعظة في القرآن على ثلاثة عشر وجهاً، وهي كما يلي:

- 1_ أعظك 2_ أعظكم 3_ أعظون 4_ تعظون 5_ يعظكم
 - 6_ يعظه 7_ عِظهم 8_ فعظوهن 9_ توعظون 10_ يوخط
 - 11_ يوخطون 12_ الواعظين 13_ موعظة.
- وإليك الآيات التي وردت في ذلك:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ يُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ إِذْ تَقُولُونَ أَنَّا نَعْلَمُ مَا لَا نَعْلَمُ وَأَنَّا نَحْكُمُ بِحُكْمِ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ فِعْزًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: 124)

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 170)

هود: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (هود: 67)

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 170)

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 170)

الأعراف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: 180)

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 170)

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 170)

البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 170)

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 170)

النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النساء: 82)

4_ انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبدالباقي ص 923.

مقاصد الموعظة وحكمها

الموعظة باب من أبواب الدعوة إلى الله، وأسلوب من أساليب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. ويحسن ههنا إيراد مقاصد الموعظة وحكمها؛ حتى لا يُظن أنها شرعت لمصلحة معينة فإذا فاتت تلك المصلحة ظنَّ أن الموعظة لم تؤت ثمرتها.

ويمكن إجمال تلك المقاصد والحكم بما يلي: (5)

- 1_ إقامة حجة الله على خلقه: كما قال _تعالى_: ﴿لَا يُظُنُّ أَنهَا شَرَعَتْ لِمَصْلَحَةٍ مَعِينَةٍ فَإِذَا فَاتَتْ تِلْكَ الْمَصْلَحَةَ ظَنَّ أَنَّ الْمَوْعِظَةَ لَمْ تَوْتِ ثَمَرَتَهَا﴾. ﴿النساء: ٨١﴾.
- 2_ الإعذار إلى الله _عز وجل_ والخروج من عهدة التكليف: قال الله _تعالى_ في صالحِي القوم الذين اعتدى بعضهم في السبوت: ﴿لَا يُظُنُّ أَنهَا شَرَعَتْ لِمَصْلَحَةٍ مَعِينَةٍ فَإِذَا فَاتَتْ تِلْكَ الْمَصْلَحَةَ ظَنَّ أَنَّ الْمَوْعِظَةَ لَمْ تَوْتِ ثَمَرَتَهَا﴾. ﴿الأعراف: ٨١﴾.
- وقال _عز وجل_: ﴿لَا يُظُنُّ أَنهَا شَرَعَتْ لِمَصْلَحَةٍ مَعِينَةٍ فَإِذَا فَاتَتْ تِلْكَ الْمَصْلَحَةَ ظَنَّ أَنَّ الْمَوْعِظَةَ لَمْ تَوْتِ ثَمَرَتَهَا﴾. ﴿الذاريات: ٨١﴾.
- 3_ رجاء النفع للمأمور: كما قال _تعالى_: ﴿لَا يُظُنُّ أَنهَا شَرَعَتْ لِمَصْلَحَةٍ مَعِينَةٍ فَإِذَا فَاتَتْ تِلْكَ الْمَصْلَحَةَ ظَنَّ أَنَّ الْمَوْعِظَةَ لَمْ تَوْتِ ثَمَرَتَهَا﴾. ﴿الأعراف: ٨١﴾.
- وقال _عز وجل_: ﴿لَا يُظُنُّ أَنهَا شَرَعَتْ لِمَصْلَحَةٍ مَعِينَةٍ فَإِذَا فَاتَتْ تِلْكَ الْمَصْلَحَةَ ظَنَّ أَنَّ الْمَوْعِظَةَ لَمْ تَوْتِ ثَمَرَتَهَا﴾. ﴿الذاريات: ٨١﴾.
- 4_ رجاء ثواب الله _عز وجل_ إذ الدعوة باب عظيم من أبواب البر.
- 5_ الخوف من عقاب الله _تبارك وتعالى_: إذ إنَّ تَرْكَ الدعوة مُؤَذِّنٌ بِالْعُقُوبَةِ.

5_ انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب 2 / 255، وأضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي 2 / 176.

قال الله تعالى: ﴿...﴾

وقال: ﴿...﴾

محمد: ﴿...﴾

6_ النصيحة للمؤمنين: والرحمة بهم، ومحبة الخير لهم، والرغبة في إنقاذهم مما أوقعوا به أنفسهم فيه من التعرض لغضب الله وعقوبته في الدنيا والآخرة، وهذا قريب من الثالث.

7_ إجلال الله وإعظامه، ومحبته: وأنه أهلُّ لأن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر، وأن يُفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال.

أدب الموعدة

الوعظ عمل جليل كما مرّ والناس بحاجة ماسة إليه، والقائمون بالوعظ بحاجة إلى ما يذكرهم بنبل غايتهم، والسبل المعينة لهم على القيام برسالتهم. وقد مضى في المقدمة إجمال لأداب الموعدة، وفيما يلي تفصيلها.

1_ التحلي بالتقوى وإخلاص النية: وذلك أمر يستمده الواعظ من قوة الإيمان بأن الله يعلم ما يُسرُّ الناس وما يعلنون، ومن علمه بأن الإخلاص عليه مدار العمل، ومن تيقنه بأن دعوته إلى فعل شيء هو تاركه أو إلى ترك شيء هو يفعله لا تتجاوز الأذان إلى القلوب، بل قد تذهب كما يذهب الزبد جفاءً.

وقد أشار القرآن المجيد إلى أن داعي الناس إلى معروف لا يفعله

جدير بالتوبيخ، قال تعالى: ﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

وقال عز وجل: ﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

﴿...﴾

طيباً، وعملاً صالحاً، وخلقاً فاضلاً.
ولهذا يحسن بالواعظ أن يتعاهد إيمانه، ويُعزِّز نفسه، ويصون علمه، وأن يترفع عن السفاسف، وأن يجانب مواطن الرِّيب، ومواضع المهانة، وأن لا يسير إلا على ما يمليه الدين، وتقتضيه الحكمة والمروءة.

وجدير به أن يكون ذا نفس زكية، وساحة طاهرة نقية؛ حتى لا يكون الخلل حائلاً بينه وبين هداية الناس.

ولا يعني ذلك أن يكون معصوماً مبرأً من كل عيب؛ إذ هو بشر، وما كان لبشر أن يدعي العصمة، أو الصواب فيما يقول، ويفعل إلا الأنبياء فيما يبلغون به عن ربهم جل وعلا.
ولا يفهم من ذلك أيضاً أن يدع الإنسان الوعظ إذا كان مقصراً في بعض الطاعات، أو مُلمماً ببعض المخالفات.
بل عليه أن يأمر وينهى ولو كان كذلك؛ فترك أحد الواجبين ليس مسوغاً لترك الآخر.

إذا لم يعظ في الناس من هو فمَن يعظ العاصين بعد محمد مذنبٌ

قال الحسن لمطرف بن عبدالله رحمهما الله: =عِظْ أصحابك، فقال مطرف: إني أخاف أن أقول ما لا أفعل.

قال الحسن: يرحمك الله، وأيتاً يفعل مايقول؟ يود الشيطان لو ظفر منا بهذا؛ فلم يأمر أحد بمعروف، ولم ينه أحد عن منكر+. (6)
وقال سعيد بن جبير x: =لو كان المرء لا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء_ ما أمر أحد بمعروف، ولا نهى عن منكر+. (7)

قال الإمام مالك xمعلقاً على مقولة سعيد بن جبير: =وصدق سعيد؛ ومن ذا الذي ليس فيه شيء+. (8)

وقال الطبري x: =وأما من قال: لا يأمر بالمعروف إلا من ليست فيه وصمة فإن أراد الأولى فجيد، وإلا فيستلزم سد باب الأمر

6_2 تفسير القرطبي 367/1.

8_ تفسير القرطبي 367/1.

بالمعروف إذا لم يكن هناك غيره+. (1)
 وقال ابن حزم x: =ولو لم ينفه عن الشر إلا من ليس فيه شيء
 منه، ولا أمر بالمعروف إلا من استوعبه لما نهى أحد عن شر، ولا
 أمر أحد بخير بعد النبي "+. (2)
 وقال النووي x: =قال العلماء: لا يشترط في الأمر والناهي أن
 يكون كامل الحال، ممتثلاً ما يأمر به، مجتنباً ما ينهى عنه.
 بل عليه الأمر وإن كان مُخلاً بما يأمر به، وإن كان متلبساً بما
 ينهى عنه؛ فإنه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه، وينهاها، وأن يأمر
 غيره وينهاها؛ فإذا أخلَّ بأحدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر؟+. (3)

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي x بعد أن ساق بعض الآثار
 الواردة في ذم من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر
 ويرتكبه: =واعلم أن التحقيق أن هذا الوعيد الشديد الذي ذكرنا من
 اندلاق الأمعاء في النار، وقرض الشفاه بمقاريض من النار ليس
 على الأمر بالمعروف، وإنما هو على ارتكاب المنكر عالماً بذلك،
 ينصح الناس عليه؛ فالحق أن الأمر غير ساقط عن صالح ولا
 طالح، والوعيد على المعصية لا على الأمر بالمعروف؛ لأنه في حد
 ذاته ليس فيه إلا الخير+. (4)

ولا يفهم مما سبق أنه لا بأس على الواعظ في ترك المعروف،
 وفعل المنكر، بل يجب عليه فعل المعروف، وترك المنكر، بل يجب
 عليه أن يكون أول ممتثل لما يأمر به، وأول منته عما ينهى عنه.
 2_ العلم: فعلم الواعظ بما يقول هو الذي يجعل الموعظة نقيّةً
 من إيراد الأحاديث الموضوعية، أو القصص المنبذة، أو تحسين
 البدع، أو إضلال الناس.

قال الله عز وجل: ﴿

1 _ فتح الباري لابن حجر 13 / 53.

2 _ الأخلاق والسير لابن حزم ص 92.

3 _ شرح صحيح مسلم للنووي 2 / 23.

4 _ أضواء البيان 2 / 173.

يوسف: ﴿١٩﴾. ﴿٢٠﴾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿١٠٠﴾

فلا بد للواعظ أن يكون على بصيرة فيما يدعو إليه من فعل أو ترك.

وأن يكون عالماً بحال المدعو، ولهذا لما بَعَثَ الرسول " معاذاً ÷ إلى اليمن قال: =إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب+ الحديث. (1)

وما ذلك إلا ليعرف حالهم؛ ليستعد لهم. ومن البصيرة _أيضاً_ أن يكون على بصيرة في كيفية الدعوة، وأساليبها.

ولا يفهم من ذلك أنه لا بد للواعظ ان يكون عالماً متبحراً، وإنما المقصود ألا يدعو إلا بما يعلم، وألا يتكلم بما لا يعلم. (2)

قال النبي " : =بلغوا عني ولو آية+. (3) ومما يتعين على الواعظ معرفته والوقوف عليه _النظر في المصالح والمفاسد.

وسياتي بيانٌ وتفصيلٌ لذلك في الصفحات التالية.

3_ لين الجانب، وبسط الوجه، والإحسان إلى الناس: فالناس يحبون لين الجانب، وبسط الوجه، والقلوب تُقبل على من يتواضع لها، وتنفر ممن يزدريها، ولا يُكَلِّمها إلا من عَلٌّ.

ومن الوسائل التي لها أثر في تألف الجاهلين أو المفسدين، وتهيئتهم إلى قبول الإصلاح _ بسط المعروف في وجوههم، والإحسان إليهم بأي نوع من أنواع الإحسان، وإرضائهم بشيء من متاع هذه الحياة الدنيا؛ فإن مواجعتهم بالجميل، ومصافحتهم براحة كريمة _ قد يعطِّف قلوبهم نحو

1 _ رواه البخاري (1458) و(1496) و (7331)، ومسلم (19)
 2 _ انظر الصحوة الإسلامية ضوابط وتوجيهات للشيخ محمد بن عثيمين ص 26 _
 31
 3 _ البخاري (3461).

الداعي، ويمهد السبيل لقبول ما يعرضه من النصيحة. والنفوس مطبوعة على مصافاة من يلبسها نعمةً، ويُفيض عليها خيراً.

ولمثل هذه الحكمة ذكر الله في القرآن من مصارف الزكاة صنف المؤلف قلوبهم.

وكان النبي " يُؤثِرُ بعض حديثي العهد بالإسلام بجانب من المال؛ للاحتفاظ ببقائهم على الهداية، يفعل ذلك حيث يظهر له أن إيمانهم لم يرسخ في قلوبهم رسوخ ما لا تزلزله الفتن. وإلى أمثال هؤلاء أشار عليه الصلاة والسلام بقوله: =إني لأعطي الرجلَ وغيره أحبَّ إليَّ منه؛ خشية أن يكبه الله في النار+. (1)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية x: =كما كان إعطاؤه " المؤلف قلوبهم مأموراً به في حقه وجوباً أو استحباباً، وإن لم يكن مأموراً به لأحد.

كما كان مزاحه مع من يمزح معه من الأعراب والنساء والصبيان؛ تطيباً لقلوبهم، وتفريحاً لهم _ مستحباً في حقه يثاب عليه وإن لم يكن أولئك مأمورين بالمزاح معه، ولا منهيين عنه. فالنبي " يبذل للنفوس من الأموال والمنافع ما يتألفها به على الحق المأمور به، ويكون المبدول مما يلتذ به الآخذ ويحبه؛ لأن ذلك وسيلة إلى غيره+. (2)

ولهذا يحسن بالواعظ أن يكون لئين العريكة، وممن يألّف ويؤلّف، وألا يكون جافي الطبع، قاسي القلب، متعالياً على السامعين. ويجدر به أن يترفع عن العبارات المشعرة بتعظيم النفس، كحال من يكثر من إدارج ضمير المتكلم (أنا) أو ما يقوم مقامه كأن يقول (في رأيي)، أو (حسب خبرتي)، أو (هذا ما توصلت إليه) ونحو ذلك. وأجدر بالبعد عن ذلك ما كان فيه تفخيم للنفس كالإتيان بضمير

1 _ رواه البخاري (27 و 1478)، ومسلم (150).

2 _ الاستقامة لابن تيمية 155/2.

الجمع، كأن يقول: (هذا رأينا) و (هذا ترجيحنا)، أو (هذا ما توصلنا إليه).

ومن ذلك أن يكرر كلمة: (نقول) و(قلنا)، ونحو ذلك من العبارات الفجة التي تنم عن نقص وغرور، خصوصاً إذا صدرت ممن ليس له مكانة.

فهذا كله مجلبة لتباعد الأنفس، وتناكر الأرواح، وقلة التأثير. وبدلاً من ذلك يحسن به أن يستعمل الصيغ التي توحى بالتواضع، وعزو العلم لأصحابه، كأن يقول: (ويبدو للمتأمل كذا وكذا)، أو يقول: (ولعل الصواب أن يقال: كذا وكذا) ونحو ذلك من العبارات المشعرة بالتواضع، واهتضام النفس.

قال ابن المقفع: =تحفظ في مجلسك وكلامك من التطاول على الأصحاب، وطب نفساً عن كثير مما يعرض لك فيه صواب القول والرأي؛ مداراة؛ لئلا يظن أصحابك أن دأبك التطاول عليهم+. (1) وقال الشيخ عبدالرحمن السعدي x: =واحذر غاية الحذر من احتقار من تجالسه من جميع الطبقات، وازدرائه، أو الاستهزاء به قولاً، أو فعلاً، أو إشارةً، أو تصريحاً، أو تعريضاً؛ فإن فيه ثلاثة محاذير:

أحدهما: التحريم والإثم على فاعله.

الثاني: دلالاته على حمق صاحبه، وسفاهة عقله، وجهله.

الثالث: أنه باب من أبواب الشر، والضرر على نفسه+. (2)

4_ الصبر والحلم: فالواعتظ محتاج لذلك أشد الحاجة؛ إذ هو مُعَرَّضٌ لما يثيره، ويحرك دواعي الغضب فيه.

ومن مواعظ لقمان _عليه السلام_ لابنه وهو يعظه: [→⑤⑥⑦⑧⑨⑩⑪⑫⑬⑭⑮⑯⑰⑱⑲⑳㉑㉒㉓㉔㉕㉖㉗㉘㉙㉚㉛㉜㉝㉞㉟]

⑤⑥⑦⑧⑨⑩⑪⑫⑬⑭⑮⑯⑰⑱⑲⑳㉑㉒㉓㉔㉕㉖㉗㉘㉙㉚㉛㉜㉝㉞㉟ [نقمان: 17].

فلا يحسن بالواعتظ أن يكون ضيق الصدر، قليل الصبر؛ ذلك أن الجماعات التي استشرى فيها الفساد كالمريض، والواعتظ لها

1 _ الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع ص 134.

2 _ الرياض الناضرة لابن سعدي ص 419.

الأعراب، فيكون جزاؤها الصفح، أو التبسم، أو الإنعام. (1)
 فإذا كان الواعظ على هذا النحو من المكارم أثمر وعظه،
 وحاز من العلياء كل مكان.

كان عمر بن عبدالعزيز x يتمثل بهذه الأبيات:
 الحلم والعلم حَلَّتَا كَرَمِ للمرء زينٌ إذ هما اجتمعا
 صنوانٍ لا يَسْتَتِمُّ حَسْنُهُمَا إلا بجمع بذا وذاك معا
 كم من وضع سما به الحلم علم فحاز السناء وارتفعا
 والـ أخمله ما أضاع فاتضعا (2)

ومن رفيع البنا أضاعهما
 5_ التجميل والعناية بالمظهر بلا إسراف: فهذا وإن لم يكن
 من الصفات التي تقوم عليها الخطابة _ أمرٌ يحسن العناية به؛ لأنه
 مطمح الأنظار.

والنظر يفعل بالقلب ما يفعله الكلام في السمع؛ فهو من هذه
 الناحية لا ينقص اعتباره عن اعتبار الصفات الأصلية؛ فيحسن
 بالواعظ أن يراعي ذلك، وأن يعتني بمظهره، وطيب رائحته، وما
 شاكل ذلك.

قال ابن حجر المكي x في معرض حديث له عن الرياء: =وقد
 يطلق الرياء على أمر مباح، وهو طلب نحو الجاه والتوقير بغير
 عبادة، كأن يقصد بزينة ثيابه الثناء عليه بالنظافة والجمالة، ونحو
 ذلك+.

إلى أن قال: =وهذا مما تستمال به القلوب؛ إذ لو سقط من
 أعينهم لأعرضوا عنه؛ فلزمه أن يظهر لهم محاسنه؛ لئلا يزدروه؛
 فيعرضوا عنه؛ لامتداد أعين عامة الخلق إلى الظواهر دون
 السرائر؛ فهذا قصده " وفيه قرينة أي قرينة، ويجري ذلك في العلماء

1 _ انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص 113، والخطابة لأبي زهرة ص 161
 162.

2 _ الجامع لسيرة عمر بن عبدالعزيز للملاء، تحقيق د/ محمد البورنو 2 / 594.

ونحوهم إذا قصدوا لتحسين هيئتهم⁽¹⁾.
فالتجمل والعناية بالمظهر إذا أمر حسن؛ فالله عز وجل جميل يحب الجمال، ويجب أن يرى أثر نعمته على عبده.

قال عز وجل: ﴿...﴾
المدثر: ﴿...﴾.

وقال النبي: "إن الله جميل يحب الجمال"⁽²⁾.
وإنما المحذور هو المبالغة في التجمل، وصرف الهمة للتأنق، واشتداد الكآف بحسن البزة؛ فهذا مما يقطع عن إصلاح النفس، ويدل على نقص الإنسان.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: "إياكم لبستين: لبسة مشهورة، ولبسة محقورة"⁽³⁾.

وقال بعض الحكماء: "البس من الثياب ما لا يزدريك العظماء، ولا يعيبك الحكماء"⁽⁴⁾.

وقال الماوردي: "واعلم أن المروءة أن يكون الإنسان معتدل الحال في مراعاة لباسه من غير إكثار ولا اطراح؛ فإن اطراح مراعاتها، وترك تفقدتها مهانة وذلة، وكثرة مراعاتها وصرف الهمة إلى العناية بها دناءة ونقص.

وربما توهم من خلا من فضل، وعري من تمييز أن ذلك هو المروءة الكاملة، والسيرة الفاضلة؛ لما يرى من تميزه على الأكثرين، وخروجه عن جملة العوام والمستردلين.
وخفي عليه أنه إذا تعدى طوره، وتجاوز قدره كان أقبح لذكره، وأبعث على ذمه"⁽⁵⁾.

وخلاصة القول أن الشارع قد فوض في أمر اللباس إلى حكم العادة، وما يليق بحال الإنسان؛ فإذا جرت العادة بلبس نوع من

1 _ الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر المكي 1 / 44، وانظر إحياء علوم الدين للغزالي 300/3، والخطابة ص 47.

2 _ رواه مسلم (91).

3 _ أدب الدنيا والدين للماوردي ص 354.

4 _ أدب الدنيا والدين ص 355.

5 _ أدب الدنيا والدين ص 354.

الثياب، وكان مستطيعاً له، فعدل عنه إلى صنف أسفل منه أو أبلى قبح به الحال، وكره له؛ لأن بذاذة اللباس، ورتته مما تقذفها العيون، وتنشز عنها الطباع، فتلقي بصاحبها إلى الهوان، والالتفات إليه بألحاظ الازدراء.

وهذه الحال لا تليق بالواعظ؛ إذ هو صاحب حق، وداعية هدى؛ فلا يحسن به أن يخذل الحق الذي يحمله، والهدى الذي يدعو إليه.

وأما الخروج عن المعتاد، والتطلع إلى ما هو أنفس وأعلى فمرفوض كما مر قال المعري:
 وإن كان في لبس الفتى فما السيف إلا غمده والحمائل
 شرفاً له (1)

بل تجد أكثر الناس يَسْتَخْفُونَ بمن يتعدى طور أمثاله في ملبسه، ويعدونَه سفهاً في العقل، وطيشاً مع الهوى. (2)
 قال الخطيب البغدادي x: = وكما يكره لبس أدون الثياب فكذلك يكره لبس أرفعها؛ خوفاً من الاشتهار بها، وأن تسمو إليه الأبصار فيها+ (3)

6_ استعمال المداراة والبعد عن المداهنة: فالمداراة من أخلاق المؤمنين والمداهنة من صفات المنافقين، والواعظ يحتاج إلى الأخذ بالأولى، والبعد عن الثانية.

وكثيراً ما يشتبه عند كثير من الناس هذان الخلقان؛ ذلكم أن حدود الفضائل تقع بمقربة من أخلاق مكروهة.

وهذه الحدود في نفسها واضحة جلية، إلا أن تمييز ما يدخل فيها مما هو خارج عنها يحتاج إلى صفاء فطرة، أو تربية تساس بها النفس شيئاً فشيئاً.

وكثيراً ما يتشابه على الرجل لأول النظر أمور؛ فلا يدري أهى

1 _ شرح ديوان سقط الزند للمعري ص 57.

2 _ انظر مناهج الشرف للشيخ محمد الخضر حسين ص 50 _ 51.

3 _ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي ص 382.

داخلة في الفضيلة، أم هي خارجة عن حدودها؟ وربما سبق ظنه إلى غير صواب؛ فيخال ما هو من قبيل الفضيلة مكروهاً فيدعه، أو يعيب به غيره، أو يخال ما هو من قبيل المكروه فضيلة فيرتكبه، أو يمدح غيره عليه. وهذا الشأن يجري في كثير من الأخلاق ومن ذلك كما مر خلق المداراة؛ إذ يشتبه بالمداهنة مع أنه يمتاز عنه امتياز الصبح من الدجى. (1)

وبما أن الحديث عن الموعظة وآدابها، وبما أن المداراة خلق فاضل يحتاجه العاقل في حياته، وأن المداهنة خلق دنيء يزرى بصاحبه، وينزل به إلى ذرّك وسقوط فإن معرفة المداراة وتمييزها عن المداهنة من الأهمية بمكان؛ حتى يسلك العاقل طريق المداراة، وينأى بنفسه عن المداهنة.

ولأريب أن الواعظ من أحوج الناس إلى ذلك؛ إذ هو يلاقي الناس، ويخالطهم، ويغرض عقله كثيراً أمامهم؛ فهو محتاج إلى مُدَاراة الناس عموماً، ومُدَاراة زمانه، ومُدَاراة مخالفه.

= بعض معالم المداراة: +

ومما يمكن أن يُمَيِّز به بين هذين الخلقين أن تُذَكَّر بعض المعالم لكل منهما، وهذه أولاً بعض معالم المداراة.

أ المداراة ترجع إلى حسن اللقاء وطيب الكلام، والتودد للناس، وتجنب ما يشعر بغضب أو سخط، كل ذلك من غير تلم للدين في جهة من الجهات.

قال ابن بطال × =المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس، وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك أقوى أسباب الألفة+. (2)

1_ انظر رسائل الإصلاح للشيخ محمد الخضر حسين 124/1.

2_ فتح الباري 545/10.

ب _ من المداراة أن يلا قيك ذو لسان، أو قلم عرف بنهش الأعراض، ولمز الأبرياء، فتُطْلَقْ له جبينك، وتحويه في حفاوة؛ لعلك تحمي جانبك من قذفه، أو تجعل لدغاته خفيفةً الوقع على عرضك.

جاء في الصحيحين عن عروة عن عائشة _ رضي الله عنها _ أن رجلاً استأذن على النبي " فلما رآه قال: =بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة+.

فلما جلس تطلق النبي _ صلى الله عليه وسلم _ في وجهه، وانبسط إليه، فلما انطلق قالت له عائشة: يا رسول الله! حين رأيت الرجل قلت له: كذا وكذا، ثم تطلّقت في وجهه، وانبسطت إليه؟ قال رسول الله " =يا عائشة! متى عهدتني فحاشاً؟ إن شر الناس عند الله منزلةً يوم القيامة من تركه الناس؛ اتقاء شره+.

وفي رواية =من تركه الناس، أو ودّعه الناس؛ اتقاء فحشه+. (1) فلقاء رسول الله " لهذا الرجل المعروف بالبذاء من قبيل المداراة؛ لأنه لم يزد على أن لاقاه بوجه طلق، أو رفق به في الخطاب. وقد سبق إلى ذهن عائشة _ رضي الله عنها _ أن الذي بلغ أن يقال فيه =بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة+ لا يستحق هذا اللقاء، ويجب أن يكون نصيبه قسوة الخطاب، وعبوس الجبين. ولكن نظر رسول الله " أبعد مدى، وأناته أطول أمداً؛ فهو يريد تعليم الناس كيف يملكون ما في أنفسهم؛ فلا يظهر إلا في مكان أو زمان يليق إظهاره فيه.

ويريد تعليمهم أدباً من آداب الاجتماع، وهو رفق الإنسان بمن يقصد إلى زيارته في منزله، ولو كان شره في الناس فاشياً. على أن إطلاق الجبين لمثل هذا الزائر لا يمنع من إشعاره بطريق سائغ أنك غير راض عما يُشيعه في الناس من أذى، ولا

1 _ البخاري (6032) و(6054) و(6131)، ومسلم (2591).

يعوقك أن تعالجه بالموعظة الحسنة إلا أن يكون شيطاناً مريداً.
 ج _ من المداراة مراعاة أعراف الناس، وعاداتهم ما لم تخالف
 الشرع: وهذا الأدب يتجلى عندما يعظ الإنسان في مكان غير
 المكان الذي عاش فيه وألفه؛ فربما رَمَتْهُ الغربة في بلدٍ ما، فوجد
 خلئقَ أهل ذلك البلد وطباعهم وعاداتهم على غير ما يألف؛
 فيحسن به _ والحالة هذه _ أن يراعي ما عليه أهل ذلك البلد، وأن
 يتجنب في وعظه منافرتهم، أو مخالفتهم فيما اعتادوا عليه؛ فذلك
 من جميل المعاشرة، ومن حسن المداراة.

فدارهم ما دمت في دارهم وأرضهم ما دمت في أرضهم
 وكل ذلك مشروط بالألا يكون في عاداتهم محذور شرعي؛ فإن
 كان ثم محذور شرعيّ تعين تقديم الأمر الشرعي على كل عادة
 وعُرف مع مراعاة الأسلوب الأمثل في التنبيه على ما يخالف
 الشرع.

قال ابن حزم x=: وإياك ومخالفة الجليس، ومعارضة أهل
 زمانك فيما لا يضرك في دينك، ولا في أخراك وإن قل؛ فإنك
 تستفيد بذلك الأذى والمنافرة، والعداوة.
 وربما أدى ذلك إلى المطالبة والضرر العظيم دون منفعة
 أصلاً. (1)

ولهذا ترك النبي " نقض الكعبة، مع رغبته في ذلك، وأن تكون
 على قواعد إبراهيم _ عليه السلام _ وما منعه من ذلك إلا خشية ألا
 تحتمله قريش؛ لقرب عهدهم بكفر.

قال _ عليه الصلاة والسلام _ : =يا عائشة لولا أن قومك حديثٌ
 عهدهم بكفر لنقضت الكعبة؛ فجعلت لها بابين: باب يدخل الناس،
 وباب يخرجون+.

وفي رواية عن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت سألت النبي " عن
 الجدر أمن البيت هو؟

قال: =نعم+

قلت: فما لهم لم يدخلوه في البيت؟

قال: =إن قومك قَصُرَتْ بهم النفقة+
قلت: فما شأن بابه مرتفعاً؟

قال: =فعل ذلك قومك؛ ليدخلوا من شاءوا، ويمنعوا من شاءوا.
ولولا أن قومك حديثٌ عهدهم بالجاهلية؛ فأخاف أن تنكر قلوبهم
أن أدخل الجذر في البيت، وأن ألصق بابه بالأرض+. (1)
د _ من المداراة الا يستسلم الواعظ لعوارضه النفسية من حبِّ
وبغض، ورضاً وغضب، واستحسان واستهجان؛ إذ لو سار على
أن يكشف الناس بكل ما يعرض له من هذه الشؤون في كل وقت
وعلى أي حال _ لاختل الاجتماع، ولانقبضت الأيدي عن
التعاون، ولشاعت البغضاء بين الناس؛ فكان من حكمة الله في
خلقه أن هَيَّأ الإنسان لأدب يتحامى به ما يُحْدِثُ تقاطعاً، أو يدعو
إلى تخاذل؛ ذلك هو أدب المداراة؛ فهو مما يزرع المودة، ويجمع
القلوب المتنافرة.

هـ _ من المداراة أن يلقي الواعظ موعظةً أمام ذي يدٍ باطشة،
فيمنحه جبيناً طلقاً، ويتجنب في حديثه ما يثير ذلك الباطش.
وهذا محمل قول أبي الدرداء ÷ =إنا لَنَكْثُرُ في وجوه أقوام،
وإن قلوبنا لَنَلْعَنُهُمْ+. (2)

وفي هذا الأثر شاهد على أن التبسم في وجه الظالم؛ انقاء بأسه
ضربٌ من المداراة ولا يتعداه إلى أن يكون مداهنة.
و _ المداراة ترجع إلى ذكاء الشخص وحكمته؛ فهو الذي
يراعي في مقدارها وطريقتها ما ينبغي أن يكون؛ ذلك أن لأسباب
العداوة مدخلاً في تفاوت مقادير المداراة، واختلاف طرقها.

1 _ رواه البخاري (126) و (1584) و (1585)، ومسلم (1333).
2 _ أخرجه البخاري في صحيحه معلقاً في كتاب الأدب =باب المداراة مع الناس+
بصيغة التمریض حيث قال =ويذكر عن أبي الدرداء..... ()
وله طرق أخرجه الحافظ ابن حجر في تعلق التعلق 102/5 وفي كل منها مقال،
ولعل بعضها يشد بعضاً، فيكون السند حسناً لغيره.

ز_ المداراة يُبتغى بها تأليفُ الناس في حدود ما ينبغي؛ فلا يُبعدك عنها قضاءً بالقسط، أو لقاءً للنصيحة في رفق.

ح_ وبالجملة فالمداراة خصلة كريمة، يحكمها الأذكىاء، ولا يتعدى حدودها الفضلاء؛ فالنفوس المطبوعة على المداراة نفوس أدركت أن الناس خلقوا؛ ليكونوا في الائتلاف كالجسد الواحد، وشأن الأعضاء السليمة أن تكون ملتئمةً على قدر ما فيها من حياة، ولا تنكر عضواً ركب معها في جسد إلا أن يصاب بعلّة يعجز الأطباء أن يصفوا لها بعد دواءً.

=بعض معالم المداهنة:+

وبعد أن اتضحت بعض معالم المداراة يحسن أن توضّح بعض معالم المداهنة؛ فأليك شيئاً من ذلك.

أ_ المداهنة هي إظهار الرضا بما يصدر من الظالم أو الفاسق من قول باطل أو عمل مكروه؛ فهي بلادةٌ في النفس، واستكانةٌ للهوى، وقبولٌ ما لا يرضى به دينٌ، أو عقلٌ، أو مروءة.

ب_ المداهنة خلق قدر، لا يَنحطُّ به إلا من قل في العلم وزنه، أو من نشأ نشأةً صغارٍ ومهانة.

ج_ المهانة تضم بين جناحيها الكذب، وإخلاف الوعد، وقلة الحياء.

د_ من المداهنة أن يثني الرجل على الرجل في وجهه، فإذا انصرف عنه أطلق لسانه في ذمه.

ه_ من المداهنة أن يَدْخُل الرجل على من يضطره الحال إلى الثناء عليه مع استغنائهِ عن الدخول عليه، ثم يبدأ بإطرائهِ ومدحه بما ليس فيه.

أما إذا اضطر الإنسان إلى الدخول على ذي قوة لا يَخْلُص من بأسه إلا أن يسمعه شيئاً من المديح _ فهو في سعة أن يمدحه بمقدار ما يَخْلُص من بأسه، ولا تُلْحِقُهُ هذه الحالة بزمرة المداهنيين.

و_ من المداهنة أن يجعل المداهنُ لسانه طوعَ بغيةِ الوجيه،
فتراه يسبق هوى الوجيه، ويعجّل إلى قول ما يشتهيهِ الوجيه،
فيمدح ما يراه الوجيه حسناً، ويذم ما يراه الوجيه سيئاً؛ بغضِ
النظر عن قناعة هذا المداهن من عدمها.

ز_ من المداهنة أن يجعل الإنسان لسانه طوع رغبة طائفته
وأتباعه دونما نظر في رضا الخالقِ جل وعلا_.
هذه هي المداهنة، وتلك أحوال أهلها يراوغون، ويخاتلون،
ويخادعون، ويكذبون، ويسترون وجه الحقيقة الأبلج، ولايبالون
بما يترتب على ذلك من عواقب.

أما الذين يعرفون ما في المداهنة من شر، ويحزنهم أن يظهر
الشر على من في استطاعته الخير _ فيربأون بألسنتهم أن تساير
في غير حق، ويؤثرون نصح الأمة بكافة طبقاتها بأبلغ أسلوب
على أن يُزَيِّنوا للناس ما ليس بزِين؛ بعلمهم بأن المداهنة خيانة،
وتفريط في أداء الأمانة، وأنها ضررٌ محضٌ على أصحابها وعلى
من يسايرونه.

ثم إن الناسَ كبيرَهم وصغيرَهم يكرهون المداهنة، ويملأون
أعينهم باحترام من يوقظهم لوجه الخير إذا كانوا في غفلة، ولوجه
الشر إذا اشتبه عليهم.

ولقد كان العلماء الأجلاء، والدعاة الصادقون يأخذون بسنة
المداراة، ولم يكونوا يتلطفون برجس المداهنة.
ولقد تظاهرت نصوص الشرع، وتضافرت أقوال العلماء
والحكماء في الحث على المداراة، وذم المداهنة، وقد مضى شيء
من ذلك.

ومن ذلك ما أورده البخاري في صحيحه، حيث أورد باباً في
كتاب الأدب قال فيه: =باب المداراة مع الناس+.
وساق فيه أثر أبي الدرداء الماضي وحديثين.

قال الحسن ×: =حسن السؤال نصف العلم، ومداراة الناس نصف العقل، والقصد في المعيشة نصف المؤونة+. (1)

وقال العتّابي: =المداراة سياسة لطيفة، لا يستغني عنها ملكٌ ولا سُوقَةٌ، يجتلبون بها المنافع، ويدفعون بها المضار، فمن كثرت مداراته فهو في ذمة الحمد والسلامة+. (2)

وقال بعضهم: =ينبغي للعاقل أن يداري زمانه مداراة السابح في الماء الجاري+. (3)

وقال ابن حبان ×: =من التمس رضا جميع الناس التمس ما لا يدرك، ولكن يَقْصِدُ العاقل رضا من لا يجد عن معاشرته بدءاً، وإن دفعه الوقت إلى استحسان أشياء من العادات كان يستقبحها، أو استقبح أشياء كان يستحسنها ما لم يكن مأثماً؛ فإن ذلك من المداراة، وما أكثر مَنْ دارى فلم يَسَلَمْ؛ فكيف توجد السلامة لمن لم يدار؟!+. (4)

وإذا كان الأمر كذلك فإن على دعاة الإصلاح أن يراعوا هذا الجانب، وأن يحرصوا على تربية الناس على خلق المداراة؛ حتى تكون بلاد المسلمين منابت نشيءٍ يميزون المداهنة من المداراة؛ فيخاطبون الناس في رقة وأدب، وشجاعة، ويحترمون من لا يلوّث أسماعهم بالملق، ولا يكتهم الحقائق متى اتسع المقام؛ لأن يحدثهم بصراحة. (5)

1 _ عيون الأخبار لابن قتيبة 22/3.

2 _ 3 عین الأدب والسیاسة، وزین الحسب والریاسة لعلي بن عبدالرحمن بن هذیل ص154.

4 _ روضة العقلاء لابن حبان 71_72.

5 _ انظر تفاصيل الحديث عن المداراة والمداهنة في روضة العقلاء ص 70_71، وفتح الباري لابن حجر 10 / 544_545، وعین الأدب والسیاسة ص125_157، والدعوة إلى الإصلاح ص50_52 و 74 ورسائل الإصلاح 1 / 31_138 ة 2 / 100، وسوء الخلق مظاهره _ أسبابه _ علاجه للكاتب ص 152_166.

هذا وسيأتي مزيد بيان وأمثلة لهذه المسألة في فقرات آتية.
 7 أخذ الأهبة والاستعداد خصوصاً إذا كان الواعظ في بداياته:
 فعليه أن يُعدَّ للكلمة جيداً، وأن يتدرب على إلقائها، ويحسن به أن
 يلقيها في أماكن بعيدة عن حواضر العلم، أو في المساجد التي لا
 يوجد فيها أهل العلم والفضل؛ حتى لا يُرتجَّ عليه، أو تُقنَّده حبسة.
 فإذا ألقى موعظته في هجرة، أو بادية، أو قرية يغلب على
 أهلها الجهل _ كان ذلك أدعى لاسترساله في موعظته، وتدربه
 على الانطلاق.

ويحسن بالمربين أن يدرّبوا من تحت أيديهم على هذه الخصلة
 الشريفة، وأن يتعاهدوهم بالنصح، والتهديب، والتوجيه؛ حتى
 يكونوا مشاعل هدى، ومصابيح دجى.

8 رباطة الجأش: وهذه الخصلة تولد مع الإنسان،
 ويكتسبها أيضاً بالممارسة، والمران، والدربة، كما أنها تتقوى
 بموجبات الإيمان.

فيجمل بالواعظ أن يتصف بهذه الخصلة الحميدة؛ حتى يعتاد لقاء
 الجمهور، والحديث إليهم بطلاقة ويسر.

ولا يجمل بالإنسان أن يسترسل مع ضعف قلبه، وقلة صبره،
 وخوفه من تهكم الناس؛ فليس من شرط الشجاعة ألا يجد الإنسان
 في نفسه الخوف من الكلام أو الإقدام؛ فذاك شعور يجده كل أحد إذا
 هو همّ بعمل جديد، أو كبير.

بل يكفي في شجاعة الرجل ألا يعظّم الخوف في نفسه، حتى
 يمنعه من الإقدام، أو يرجع به إلى الانهزام.

ثم عليه بعد ذلك أن يوطن نفسه على الصبر، وأن يحذر من
 تضخيم النتائج؛ فهب أنك تكلمت مرة، فأخطأت، أو لم تُجِدْ؛ ماذا
 في الأمر؟

لا شيء؛ فكل أحد عرضة للخطأ بل إن الخطأ هو طريق
 الصواب؛ فلا تعظّم شأن الخطأ في قلبك، ولا تبال بلمز الناس
 وعييهم؛ فالسلامة منهم عزيزة المنال.

ثم إن الإخفاق ليس عاراً إذا بذل الإنسان جهده، ولا يعد المرء

مُخَفِّقاً إلا إذا تخلّى عن المحاولة، وتقبّل الهزيمة كأنها دائمة. وبالجملة فإن الخطابة، ومقابلة الجمهور في الوعظ ضرب من ضروب الشجاعة الأدبية، والشجاعة عموماً هي مواجهة الأمر عند الحاجة في ثبات، وليست مرادفةً لعدم الخوف _ كما قد يُظنّ _.

فهذا عمرو بن معدي كرب الزبيدي وحسبك به شجاعةً وإقداماً _ يصف نفسه، ويصور حاله في ساحات الوغى، ويبين أن الخوف يداخله، ولكنه لا يحمله على الفرار، والإحجام؛ فلا ينقص ذلك من قدره؛ حيث يقول:

ولقد أجمع رجليّ بها حذر الموت وإني لفروز
ولقد أعطفها كارهةً حين للنفس من الموت هريز
كلُّ ما ذلك مني خُلُقٌ وبكلِّ أنا بالروع جدير (1)

9 قوة الملاحظة: لأجل أن يدرك الواعظ أحوال المخاطبين حال إلقاء موعظته أ هم مقبلون عليه فيسترسل في قوله، ويستمر في نهجه؟ أم هم معرضون عنه، فيتجه إلى ناحية أخرى يراها أقرب إلى قلوبهم وأدنى إلى مواطن التأثير فيهم، فيحسن بالواعظ أن يكون ذا نظرات فاحصة كاشفة؛ بحيث يقرأ من الوجوه خطرات القلوب، ومن اللحاحات ما تكنه النفوس نحو قوله؛ ليجدد بذلك نشاطهم، ويذهب بفتورهم، ولتتصل روحه بأرواحهم. (2)

10 حضور البديهة: لأن الواعظ قد تمر به أحوالٌ تُجبره على العدول عن كلمة إلى أخرى؛ فقد يُعدُّ كلمةً، ويظن أنها تناسب هؤلاء القوم؛ فإذا رآهم، أو رأى بعضهم أدرك أنها لا تناسبهم. وقد يقول كلاماً فيخشى أن يفهم على غير ما أراد وهكذا... فإذا كان حاضر البديهة أمكنه تدارك الخطأ، أو تغيير الموضوع، أو تلافى الإحراج.

وهذه الخصلة تكتسب بالتجارب، والنظر، والمِرَاس. 11 مراعاة المدة الزمنية للموعظة: فمراعاة هذا الأدب من

1 _ الشعر والشعراء لابن قتيبة ص 82.

2 _ انظر الخطابة ص 44.

الأهمية بمكان؛ إذ هو مما يعين على الانتفاع بالموعظة، والإصغاء إليها بإقبال ونشاط.

ولا ريب أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص؛ فيختلف باعتبار حال الموعظة، ويختلف باعتبار حال الواعظ، ويختلف باعتبار حال المخاطبين؛ فالموعظة المفاجئة لها حال، والموعظة المحددة بزمان ومكان محددين لها حال، والموعظة المحددة بعنوان لها حال.

ثم إن الموعظة التي يلقيها فلان من الناس تختلف عن الموعظة التي يلقيها غيره؛ فالعالم وذو المكان له حال، ومن دونه في الرتبة له حال.

وكذلك السامعون؛ فالمقبلون على الموعظة لهم حال، ومن كان إقبالهم أقل فلهم حال أخرى وهكذا...

فمراعاة هذه الأحوال وأمثالها يعين الواعظ على التأثير في الناس، وإساعتهم للموعظة.

وبناءً على ذلك فإنه قد لا يتسنى تحديد وقت ملائم للموعظة لا تزيد عنه أو تتعداه؛ فقد تقتضي الحكمة أن يطنب الواعظ، وقد تقتضي أن يوجز، وقد تقتضي أن يتوسط.

وإذا روعي هذا الجانب، ووضع في موضعه عم نفعه، وعظم وقعه، والعكس.

قال أبو هلال العسكري x: =والقول القصد أن الإيجاز والإطناب يُحتاج إليهما في جميع الكلام، وكل نوع منه، ولكل واحد منهما موضع؛ فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه؛ فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ. (1)

ومهما يك من شيء فإن التوسط والإيجاز هما أقرب الأساليب لإساعة الموعظة إلا إذا اقتضى المقام غير ذلك.

وهكذا كانت خطب النبي " فما كان يطيل؛ لأنه يخشى على

1 _ كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص 239 _ 259.

الناس الملل.

وكانت خطبه مع قصرها مليئة بالحكمة، والموعظة الحسنة؛ إذ تجيء حافلة بجوامع الكلم، والجمال التي تجري على الألسنة مجرى الأمثال. (1)

جاء في صحيح مسلم عن جابر بن سمرة ÷ قال: =كنت أصلى مع رسول الله " فكانت صلاته قصداً، وخطبته قصداً+. (2)
ومعنى =قصداً+: أي متوسط بين الإفراط والتفريط وبين التقصير والتطويل. (3)

وفي صحيح مسلم عن أبي وائل قال: =خطبنا عماراً فأوجز، وأبلغ، فلما نزل قلنا: يا أبا اليقظان! لقد أبلغت، وأوجزت، فلو كنت تنفست!.

فقال: =إني سمعت رسول الله " يقول: =إن طول صلاة الرجل، وقصر خطبته مئنة من فقهه؛ فأطيلوا الصلاة، وأقصروا الخطبة، وإن من البيان سحراً+. (4)

ومعنى قوله: =لو كنت تنفست+: أي أطلت قليلاً.

ومعنى: =مئنة من فقهه+: أي علامة. (5)

ومع أن هذا هو دأب رسول الله " في خطبه ومواعظه _ فهو يطيل في بعض الأحيان متى اقتضى الحال الإطالة.

جاء في صحيح مسلم عن عمرو بن أخطب ÷ قال: =صلى بنا رسول الله " الفجر، وصعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا+. (6)

1 _ انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص 185.

2 _ مسلم (866).

3 _ انظر مرقاة المفاتيح لملا علي قاري 3 / 498.

4 _ مسلم (869).

5 _ شرح النووي على صحيح مسلم ص 568.

6 _ مسلم (2892).

ومن خلال ما مضى يتبين لنا أن مدة إلقاء الموعظة أمرٌ نسبي يُرجع فيه إلى اجتهاد الواعظ، وحكمته، ويرجع فيه إلى اختلاف الأحوال والأشخاص.

كما تبين لنا أن الإيجاز هو القريب المحبب إلى النفوس. ومما يمكن التفصيل فيه في هذا الشأن أيضاً أن يقال: إذا كانت الموعظة محددة ومعلنة فلا بأس في إطالتها إذا كان الوقت المحدد يسمح بهذا.

وذلك كما لو كان موعدها يستغرق ما بين المغرب والعشاء، أو كان وقتها محددًا بساعة أو أكثر.

وكذلك تسوغ الإطالة إذا كان الواعظ معروفاً عند الناس وهم يرغبون في إطالته كالعالم الذي له منزلته أو نحو ذلك. وكذلك تسوغ الإطالة إذا طلب المخاطبون من الواعظ أن يطيل فيهم.

أما إذا كانت الموعظة مفاجئة، أو كان الواعظ لا يعرفه المخاطبون، أو كانوا في مكان أو وقت ضيق فلا تسوغ الإطالة. وذلك مثل الموعظة التي تكون دبر الصلوات المكتوبة؛ فالإطالة فيها تفضي إلى الإملال، واستئقال الحديث؛ فاللائق أن تصاغ بصورة موجزة جداً، فلا يحسن بالواعظ أن يُخرج الناس، ويضجرهم، ويثقل عليهم بطول حديثه.

بل يحسن به أن يحدد زمناً قصيراً حتى يحفز المخاطبين إلى البقاء لسماع الموعظة، وذلك كأن يقول: لن أزيد في كلمتي هذه على خمس دقائق أو أربع أو نحوها، وأن يفي بما يقول.

ولأن يقال: ليته واصل خير من أن يقال: ليته سكت. ويجمل بالواعظ أن يقتصر في موعظته على الكلمات الجامعات للمعاني الكثيرة، وأن يتجنب التفصيلات التي لاداعي لها.

كما يحسن به ألا يتشعب في الموعظة، بل يحسن أن يكون الموضوع واحداً؛ حتى تحصل الفائدة المرجوة منه. فلو انطلق في موعظته من آية، أو حديث، أو أثر، ثم بين المقصود من ذلك بأوجز عبارة لكان حسناً.

مثال ذلك أن يأخذ قوله تعالى: ﴿...﴾
 ﴿...﴾
 ﴿...﴾
 من خلال هذه الآية عن الحكمة من خلق الجن والإنس، وعن فضل عبادة الله، وأثرها في سعادة الإنسان في دنياه وأخراه، وعن عاقبة الإعراض عن عبادة الله، وأثره في الشقاوة دنيا وأخرى وهكذا...

أو أن يأخذ قوله تعالى: ﴿...﴾
 ﴿...﴾
 ﴿...﴾
 الأعراف: ﴿...﴾ ثم يبين كيف جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق وهكذا...

أو أن يأخذ سورة العصر، ويبين من خلالها أصول السعادة، وأنها تكمن في العلم، والعمل به، والدعوة إليه، والصبر على الأذى فيه.

أو أن يأتي بالحديث الذي رواه معاذ وأبو ذر رضي الله عنهما عن النبي "أنه قال: = اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن.+ (1)

ثم يبين كيف جمع هذا الحديث بين حقين عظيمين من أتى بهما أفلح وسعد، والعكس.

وهذان الحقان هما حق الله، وحق الناس؛ فحق الله في الجملتين الأوليين، وحق الناس في الجملة الأخيرة، وهكذا...

وكذلك الحال بالنسبة للموعظة بعد صلاة الجمعة؛ فالذي ينبغي ألا تكون إلا إذا رأى الواعظ أن الحاجة ماسة لذلك؛ فينبه إلى ما يريد التنبيه عليه، ويبين ما يريد بيانه من الأمور التي لا بد أن يفقهها الناس في ذلك الوقت، وأن يكون ذلك في وقت وجيز جداً؛ لأن الناس قد استمعوا لخطبة الجمعة، وربما تكون الخطبة طويلة، كما أن بعضهم قد يكون أتى إلى المسجد مبكراً، فيثقل عليه سماع

1 _ رواه أحمد 135/5، والترمذي (1987) وحسنه، والحاكم 54/1، وقال: صحيح على شرط الشيخين+.

الموعظة، ويستحيي من الخروج، فيقع في حرج. ثم إن الناس يرغبون في الانتشار بعد الصلاة، وابتغاء ما عند الله عز وجل.

قال الإمام أحمد x: = إذا كانوا يقرأون الكتاب يوم الجمعة على الناس بعد الصلاة أعجب إليّ أن يسمع إذا كان فتحاً من فتوح المسلمين، أو كان فيه شيء من أمور المسلمين فليستمع، وإن كان شيئاً إنما فيه ذكرهم فلا يستمع. (1)

12_ التخلو بالموعظة: فذلك أدعى للاشتياق، وأحرى لقبول الموعظة والانتفاع بها؛ فجدير بالواعظ ألا يكثر من وعظ أناس بأعيانهم، أو يتابع عليهم الوعظ مراراً قريباً بعضها من بعض؛ فإن النفس شرود، وإن كثرة الوعظ تفقده أثره.

ولقد كان من حكمة نبينا محمد " في الدعوة أنه لا يجعل الوعظ ركماً، بل كان يتحرى بالموعظة وقت حاجة الناس إليها، أو وقت نشاطهم لسماعها.

أورد البخاري x في كتاب العلم من صحيحه بابين في هذا الشأن. أحدهما: = باب ما كان النبي " يتخلوهم بالموعظة والعلم؛ كي لا ينفروا+.

وتحت هذا الباب ساق بسنده حديثين، أحدهما عن ابن مسعود ÷ قال: = كان النبي " يتخلوهم بالموعظة في الأيام؛ كراهة السامة علينا+. (2)

والثاني عن أنس ÷ عن النبي " قال: = يسروا، ولا تعسروا، وبشروا، ولا تنفروا+. (3)

والباب الثاني: = باب من جعل لأهل العلم أياماً معلومة+. ثم قال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، قال: حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل قال: كان عبدالله يعني ابن مسعود يذكر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن! لو ددنت لو ذكرتنا كل

1 _ المغني لابن قدامة 3 / 251.

2 _ البخاري (68)، وأخرجه مسلم (2821).

3 _ البخاري (69)، وأخرجه مسلم (1734).

يوم.

قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة، كما كان النبي " يتخولنا بها؛ مخافة السامة علينا+. (1)
قال ابن حجر x: في شرح الحديث الأول: =في قوله =كان يتخولنا+: =والمعنى كان يراعي الأوقات في تذكيرنا، ولا يفعل ذلك كل يوم؛ لئلا نمل+. (2)

وقال: =وقوله: =علينا+: أي السامة الطارئة، أو ضمّن معنى المشقة، فعداها بعلی، والصلة محذوفة، والتقدير في الموعظة+. (3)
وقال ابن حجر مبيناً الضوابط في ذلك: =ويختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، والضابط: الحاجة مع مراعاة وجود النشاط+. (4)

وجاء في صحيح البخاري عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: =حدّث الناس كل جمعة مرة، فإن أبيت فمرتين، فإن أكثرت فثلاث مرار، ولا تُملّ الناس هذا القرآن+ الحديث. (5)
والعرب تقول في أمثالها: =زرّ غباً تزدّد حباً+. (6)
وقال بعضهم:

إذا شئت أن تُقلَى فزرّ متتابعاً وإن شئت أن تزداد حباً فزر
غباً (7)

وسياتي مزيد بيان لهذه الفقرة في الفقرة التالية.

13_ ترك الوعظ عند من لا يرغب: فمما يحسن بالواعظ أن يحفظ على نفسه كرامتها، وألا يبذل علمه، وينشره عند من لا يقدره، أو لا يرغب فيه.

ومن الحكمة في ذلك ألا يلقي إلا في مكان مناسب، وفي وقت يحسن

1 _ البخاري (70)، وأخرجه مسلم (2821).

2 _ فتح الباري 1 / 196.

3 _ 2 فتح الباري 1/196.

5 _ البخاري (6337).

6 _ مجمع الأمثال للميداني 323/1، وفرائد الخرائد في الأمثال لأبي يعقوب يوسف بن طاهر الخوي ص 262.

7 _ فرائد الخرائد ص 262.

الإلقاء فيه.
أما إذا كان المكان والزمان غير مناسبين، أو كان الناس عنه
منصرفين، ولحديثه غير راغبين_ فلا يحسن به أن يلقي.
مثال ذلك أن يكون الناس في وليمة زواج، وهم يتحدثون، ويسلم
بعضهم على بعض.
أما إذا كان المكان مهيباً والناس مستعدين لسماع الموعدة فلا بأس
بإلقائها وإن كان بعضهم مشتغلاً عنه.
جاء في صحيح البخاري عن عكرمة عن ابن عباس_ رضي الله
عنهما_ قال: =ولا ألفينك تأتي القوم، وهم في حديث من حديثهم ،
فتقص عليهم، فتقطع عليهم حديثهم، فتملهم، ولكن أنصت فإن أمروك
فحدثهم وهم يشتهونه+. (1)
قال ابن حجر x في شرح كلام ابن عباس_ رضي الله عنهما_:
=وفيه كراهة التحديث عند من لا يُقبل عليه، وأنه يقطع حديث
غيره، وأنه لا ينبغي نشر العلم عند من لا يحرص عليه، ويحدث
من يشتهي بسماعه؛ لأنه أجدر أن ينتفع به+. (2)
وعقد الخطيب البغدادي x في كتابه الجامع باباً عنوانه: =باب
كراهة التحديث لمن لا يبتغيه وأن من ضياعه بذله لغير أهله+.
ثم ساق جملة من الآثار في هذا.
ومن ذلك ما رواه بسنده عن مسروق x قال: =لا تنتشر بزك إلا
عند من يبتغيه+.
قال الإمام أحمد x: =يعني الحديث+. (3)
وساق بسنده عن مطرف x أنه قال: =لا تطعم طعامك من لا
يشتهيه+.
أي لا تحدث بالحديث من لا يريد+. (4)
وروي عن مغيرة x قال: =إني لأحتسب في منعي الحديث كما

1 _ البخاري (6337).

2 _ فتح الباري 11 / 143.

3 _ الجامع (727).

4 _ الجامع (731).

تحتسبون في بذله+. (1)

وهكذا يتبين لنا من خلال هذه الآثار أنّ الداعي لابد له من أذانٍ مُصنّغيةٍ تعي ما يقول، وإلا كان كلامه هباءً منثوراً. ثم إن قدر العلم والموعظة قد يخف عند الناس إذا رأوا صاحبه في موقف لا يحسد عليه، من إعراض الناس عنه، أو وقيعتهم فيه. بل لقد بالغ بعضهم فقال:

يستوجب الصفع في الدنيا لا لوم في واحد منهم إذا
ثمانية صُفعا

ثم ذكر منهم:

ومُتَحِفٌ بحديثٍ غيرِ سامِعِهِ وداخِلٌ في حديثِ اثنين مندفعاً
(2)

ولا يدخل في ذلك من رأى أناساً على منكر ثمّ أراد الإنكار عليهم بموعظةٍ يقولها لهم؛ فلا حرج على هذا إذا أراد تغيير المنكر خصوصاً إذا كان في حدود الحكمة، ولا لوم عليه إذا كرهوا موعظته وإنكاره.

فهذا المقام خلاف المقام السابق؛ إذ هو مقام إنكار، وذاك مقام موعظة عامة.

14_ التجوّز في الموعظة عند ملاحظة الملل والفتور: فمن الأدب في الموعظة، ومما يليق بالواعظ أن يتجوّز في موعظته، أو أن يقطع حديثه إذا لاحظ أن الملل والفتور قد دبّا إلى السامعين.

وعلامة ذلك أن يرى منهم أو من بعضهم تحقّراً، أو تمطّياً، أو تثاؤباً، أو التفاتاً، أو نحو ذلك مما لا يخفى على الواعظ الألمعي.

أورد الخطيب في كتابه الجامع مسألة عنوانها = كراهة التحديث لمن عارضه الكسل والفتور+.

ثم قال x: = حق الفائدة أن تساق إلى مبتغيها، ولا تعرض إلا على الراغب فيها؛ فإذا رأى المحدث بعض الفتور من المستمع فليسكت؛ فإن بعض الأدباء قال: نشاط القائل على قدر فهم

1 _ الجامع (736).

2 _ إصلاح المجتمع للبيحاني ص 360.

- السامع+. (1)
 وذكر البغوي x عن ابن مسعود ÷ أنه قال: =حدث القوم ما حدّجوك (2) بأبصارهم، وأقبلت عليك قلوبهم؛ فإذا انصرفت عنك قلوبهم، فلا تحدثهم+.
 قيل وما علامة ذلك؟
 قال: =إذا التفت بعضهم إلى بعض، ورأيتهم يتشاءبون فلا تحدثهم+. (3)
 وذكره الخطيب عن ابن مسعود بلفظ: =حدث القوم ما أقبلت عليك قلوبهم؛ فإذا انصرفت قلوبهم؛ فلا تحدثهم+.
 قيل له: وما علامة ذلك؟
 قال: =إذا حدّجوك بأبصارهم؛ فإذا تشاءبوا، واتكأ بعضهم على بعض فقد انصرفت قلوبهم فلا تحدثهم+. (4)
 وأخرج الدارمي في سننه عن ابن مسعود ÷ قوله: =إن للقلوب لنشاطاً وإقبالاً، وإن لها لتوليةً وإدباراً؛ فحدثوا الناس ما أقبلوا عليكم+. (5)
 وأخرج الخطيب عن أبي خذلة قال: سمعت أبا العالية x يقول: =حدّث الناس ما حملوا.
 قال: قلت ما حملوا؟ قال: =ما نشطوا+. (6)
 15_ مراعاة حال الجو: فقد يكون شديد الحرارة، أو شديد البرودة.

فإذا اجتمع هذا إلى ثقل الموعظة وطولها قل الانتفاع.
 فهذا يحمل الواعظ على أن يقتصد في كلامه خصوصاً إذا كان الناس على غير موعدٍ معه، أو كانوا قد أدوا الصلاة، ويرغبون

-
- 1 _ الجامع ص 330.
 2 _ حدجوك: أي وجهوها نحوك.
 3 _ شرح السنة للبغوي 1 / 314.
 4 _ الجامع (740).
 5 _ سنن الدارمي (454)، وأخرجه الخطيب في الجامع (742).
 6 _ الجامع (743).

في الخروج من المسجد.

16_ معرفة النفوس، ومراعاة العقول: فذلك دليل على حسن التصرف، وسبب في القوة والتأثير؛ فالخبرة بما للطوائف والبيئات من أحوال نفسية، وإلقاء الدعوة بالثوب الملائم لهذه الأحوال موكولٌ إلى ذكاء الواعظ.

والواعظ الحكيم يُحْكِمُ هذا الأمر، وينتفع به عند لقائه بالطبقات المختلفة؛ فتراه يزن عقول مَنْ يلاقونه، ويُحَسُّ بما تُكِنُّ صدورهم، وتنزع إليه نفوسهم، فيشهد مجالسهم، وهو على بصيرة مما وراء أسنتهم من عقول وسرائر، وعواطف، فيتيسر له أن يسايرهم إلا أن ينحرفوا عن الرشد، ويتحامي ما يؤلمهم إلا أن يتألموا من صوت الحق.

ولاربيب أن مراعاة عقول الناس وطباعهم ونزعاتهم فيما لايقعد حقاً أو يقيم باطلاً _ مظهر من مظاهر الإنسانية المهذبة، وخلق من الأخلاق التي تتم الإسلام صالحها، ومكارمها. وهذا الأمر _ وإن كان عائداً إلى الموهبة _ فهو كذلك يقوى وينمو على قدر ما يتقلب فيه الفكر من مشاهدات، وتجارب، ومطالعات تاريخية.

وسيأتي مزيد بيان لهذا المعنى.

17_ تحسس الأدواء، والبداءة بالأهم فالمهم: فالواعظ الحكيم يتحسس أدواء الناس، وينظر أحوالهم، ثم ينزل موعظته على ما يلائم تلك الأحوال من مراعاة الأهم فالمهم.

وهكذا كانت سيرة الأنبياء مع أقوامهم؛ فهم _ عليهم السلام _ ينظرون في أحوال أقوامهم، فيأمرونهم بالمعروف الذي أخلوا به، أو يحذرونهم من المنكر الذي وقعوا فيه.

فذلك من حكمة الدعوة، ومما يحسن بالواعظ ألا يُغْفله؛ إذ لا يليق به أن يحدث الناس إلا بما يحتاجون إليه، كما لا يحسن به أن يحدثهم عن أمرٍ وهم محتاجون إلى غيره أشد من حاجتهم إليه، وذلك كحال من يحدثهم عن أدب من الآداب، أو سنة من السنن وهم غارقون في الشرك إلى الأذقان.

فهؤلاء محتاجون إلى بيان التوحيد، وخطر الشرك أشد من حاجتهم إلى غيره، وهكذا...

ولا يعني ذلك ألا يتكلم إلا بالتوحيد وفصوله وأبوابه، أو عن الشرك، ووسائله وذرائعه ونحو ذلك.

وإنما المقصود بيان الأهم فالمهم وذلك يختلف من مكان إلى مكان، ومن أناس إلى أناس.

ولهذا كان جميع الأنبياء عليهم السلام يقولون لأقوامهم: ﴿

كما قال الله عز وجل: ﴿

ومع ذلك لم يغفلوا ما وقعت به تلك الأمم من المخالفات

الأخرى؛ فهذا لوط عليه السلام يقول لقومه: ﴿

وهذا شعيب عليه السلام يقول لقومه: ﴿

وهكذا كانت سيرة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام حيث

كان يراعي أحوال الناس، وينزل مواظمه على أحوالهم، كما كان

يقدم الأهم فالمهم.

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، ولعل من أجلها، وأوضحها ما

جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله " لما

بعث معاذاً إلى اليمن قال له: =إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب؛

وقال: ﴿ قُلْ إِنِّي أَنزَلْتُ الْقُرْآنَ بِالْحِكْمِ وَجَاءَ الْوَحْيَ إِيمَانًا لِّمَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّبِّهِمْ وَأَسَاقَتْ وَفِيهِمْ مَّوَدَّةٌ بَيْنَهُمْ سَوَامٌ مِّنَ الَّذِينَ هَدَىٰ وَإِن طَافَ جَمِيعٌ بَعْدَ الْإِيمَانِ أَن يَخْلِفَا أَحَادِيثَهُمُ مِنَ الْإِيمَانِ أَغْرَبُوا إِلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ مِنَ الْوَحْيِ بَاطِلٌ إِن يَخْلِفُونَكَ إِلَّا عَن ذُرِّيَّتِهِمُ الْمَكَاتِلِ وَيَعْلَمُونُ أَلْسِنَتَهُم بِمَا قَالُوا لَكَ وَإِن كُنتَ لَتَدْرِئُهُمْ وَلَئِن لَّمْ يَؤْمِنُوا بِكَ وَإِن يَخْلِفُونَكَ لَأُولَئِكَ أَلْسِنَةٌ ذَلِيلَةٌ وَقُلْ إِنِّي لَأَنذِرْتُ لَكُمُ الْيَوْمَ وَالْآخِرَةَ وَمَا أَجْرِي إِلاَّ أَن يَرْضَىٰ لِي بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

فنسب الفعل إليه هو، وذكر لفظ التزكي دون غيره؛ لما فيه من البركة، والخير، والنماء.

ثم قال: ﴿ قُلْ إِنِّي لَأَنذِرْتُ لَكُمُ الْيَوْمَ وَالْآخِرَةَ وَمَا أَجْرِي إِلاَّ أَن يَرْضَىٰ لِي بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

أكون كالدليل بين يديك الذي يسير أمامك. وقال: ﴿ قُلْ إِنِّي لَأَنذِرْتُ لَكُمُ الْيَوْمَ وَالْآخِرَةَ وَمَا أَجْرِي إِلاَّ أَن يَرْضَىٰ لِي بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

استدعاءً لإيمانه بربه الذي خلقه، ورزقه، ورباه بنعمه صغيراً وكبيراً. (1)

ولهذا فإن الموعدة التي تُلقى في أدب، وسعة صدر، تسيغها القلوب، وتهش لها النفوس، وترتاح لها الأسماع.

ولقد امتن ربنا جل وعلا على نبينا محمد " بأن جبله على الرفق ومحبة الرفق، وأن جنبه الغلظة، والفظاظة، فقال عز وجل:

﴿ قُلْ إِنِّي لَأَنذِرْتُ لَكُمُ الْيَوْمَ وَالْآخِرَةَ وَمَا أَجْرِي إِلاَّ أَن يَرْضَىٰ لِي بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

ولقد كانت سيرته عليه الصلاة والسلام حافلة بهذا الخلق الكريم الذي من ملكه بسط سلطانه على القلوب.

وكما كان عليه الصلاة والسلام متمثلاً هذا الخلق فقد كان يأمر به ويبين فضله.

قال " = إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على غيره. (2)

وقال عليه الصلاة والسلام: " = إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه. (3)

ولما بعث أبا موسى الأشعري ومعزاً إلى اليمن قال لهما:

1 _ بدائع الفوائد لابن القيم 132/3 _ 133.

2 _ رواه مسلم (2593).

3 _ رواه مسلم (2594).

=يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا+. (1)
قال الإمام أحمد x: =يأمر بالرفق والخضوع، فإن أسمعوه ما
يكره لا يغضب؛ فيكون يريد ينتصر لنفسه+. (2)
ولقد أحسن من قال:

لوسار ألف مَدَجَّج في حاجة لم يَقْضِهَا إلا الذي يترفق (3)
وكان يقال: =من لانت كلمته وجبت محبته+. (4)
فالرفق ولين الخطاب هو المتعين حال الموعظة، وهو الأليق
بحال الواعظ؛ لأن حال الموعظة غير حال الرد، والمناظرة،
والمجادلة.

ومع ذلك قد يحتاج إلى الشدة وذلك في حالات خاصة، ومن
أناس مخصوصين، وفي حق من يستحق ذلك؛ فإذا كان الواعظ ذا
مكانة، وكان المقام يقتضي الشدة، ولم يترتب على ذلك مفسدة
أخذ بهذا الأسلوب.

ولهذا كان موسى عليه السلام متلطفاً مع فرعون غاية
التلطف في بداية الأمر كما مر قريباً وعندما رأى من فرعون
العناد والاستكبار ومحاولة الصد عن الهدى من بعد ما تبين له
أغلظ له في الخطاب كما في قوله تعالى:

الإسراء: ﴿...﴾

فأين هذا الخطاب من الخطاب الأول؟

وكما في قوله تعالى: ﴿...﴾

1 _ رواه البخاري (6124)، ومسلم (1733).

2 _ جامع العلوم والحكم 2 / 456.

3 _ روضة العقلاء ص 216.

4 _ البيان والتبيين للجاحظ 2 / 174.

ولا اللعان، ولا الفاحش البذيء+. (1)
 قال النووي x = ومما ينهى عنه الفحش، وبذاءة اللسان،
 والأحاديث الصحيحة فيه كثيرة ومعروفة.
 ومعناه: التعبير عن الأمور المستقبحة بعبارة صريحة، وإن كانت
 صحيحة، والمتكلم بها صادقاً.
 وينبغي أن يُستعمل في ذلك الكنايات، ويعبر عنها بعبارة جميلة
 يفهم بها الغرض.

وبهذا جاء القرآن العزيز، والسنن الصحيحة المكرمة.

قال تعالى: ﴿...﴾
 وقال تعالى: ﴿...﴾

وقال تعالى: ﴿...﴾
 والآيات، والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة.

قال العلماء: فينبغي أن يُستعمل في هذا وما أشبهه من العبارات
 التي يُستحيا من ذكرها بصريح اسمها الكنايات المُفهِمة؛ فيكُنِّي
 عن جماع المرأة بالإفشاء، والدخول، والمعاشرة، والوقاع،
 ونحوها+. (2)

وقال النووي x = وكذلك يَكُنِّي عن البول والتغوط بقضاء
 الحاجة، والذهاب إلى الخلاء، ولا يصرح بالخرافة، والبول،
 ونحوهما.
 وكذلك ذكر العيوب، كالبرص، والبخر، والصنان، وغيرها يُعَبَّر
 عنها بعبارات جميلة يفهم منها الغرض.

1 _ أخرجه أحمد 404، والبخاري في الأدب المفرد (232)، والترمذي (1977)
 وقال: = حسن غريب+ وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (237).
 2 _ الأذكار للنووي ص 334.

ويلحق بما ذكر من الأمثلة سواه+. (1)
 قال القاسمي x=إياك، وما يستقبح من الكلام؛ فإنه ينقّر عنك
 الكرام، ويؤثّب عليك اللئام+ ا هـ. (2)
 ومما يدخّل في ذلك ما كان مستنكر الظاهر، وإن كان معناه
 سليماً بعد تدقيق النظر فيه.
 قال الماوردي x=: وما يجري مجرى فحش القول، وهجره،
 ولزوم تنكّبه ما كان شنيع البديهة، ومستنكر الظاهر، وإن كان
 عقب التأمل سليماً، وبعد الكشف، والرؤية مستقيماً+. (3)
 ومما تجدر الإشارة إليه أنه لا ينبغي التصريح بالعبارات
 المستكرهه صراحة ما لم تدع الحاجة كما مر.
 أما إذا دعت الحاجة إلى ذلك فلا بأس به، بل هو المتعيّن؛ فإن
 تحصيل الإفهام في هذا أولى من مراعاة الأدب. (4)
 20_ صرف الإنكار على غير معين: فذلك مما يندرج في سلك
 أدب الموعظة، وهكذا كان النبي " حيث كان يأخذ في التأديب
 والزجر عما لا ينبغي مأخذاً لطيفاً، حتى إنه لا يوجه الإنكار إلى
 الرجل الذي صدر منه الخطأ بعينه، ما وجد في الموعظة العامة
 كفاية من باب قوله: =ما بال أقوام+.
 جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت:
 صنع النبي " شيئاً فرخص فيه، فتنزه عنه قومٌ، فبلغ ذلك النبي "
 فخطب، فحمد الله ثم قال: =ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء
 أصنعه؟ فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدّهم له خشية+. (5)
 وقد بوب البخاري x لهذا الحديث في =باب من لم يواجه
 الناس في العتاب+.
 وشكى إليه رجلٌ رجلاً حين كان يطيل بهم صلاة الغداة، فاشتد

- 1 _ الأذكار ص 234.
- 2 _ جوامع الآداب للقاسمي ص 6.
- 3 _ أدب الدنيا والدين ص 284.
- 4 _ انظر الأذكار ص 334 _ 335.
- 5 _ البخاري (6101)، ومسلم (2356).

غضبه " ولكنه احتفظ بعادته الجميلة؛ فلم يخاطب الذي كان يطيل على التعيين، بل عمم الموعظة وقال: =أيها الناس إن منكم منقريين؛ فمن صلى بالناس فليخفف؛ فإن فيهم المريض، وذا الحاجة+. (1)

هذا هو الأصل في تعميم الموعظة، وصرف الإنكار إلى غير معين.

أما إذا احتيج إلى أن يكون الإنكار على وجه التعيين فلا بأس في ذلك، وإن كان ذلك لا يسوغ من كل أحد، ولا في حق كل أحد؛ إذ لا يسوغ إلا إذا اقتضت الحكمة ذلك، ولا يسوغ إلا ممن له منزلة، ومكانة، وكلمة مطاعة.

ولهذا خاطب النبي " معاذاً ÷ على وجه التعيين.

جاء في الصحيحين عن جابر بن عبدالله ÷ قال: =كان معاذ بن جبل يصلي مع النبي " ثم يرجع فيؤم قومه، فصلى ليلة مع النبي " العشاء، ثم أتى قومه فأمهم، فافتتح بسورة البقرة، فأنحرف رجل، فسلم، ثم صلى وحده، وانصرف، فقالوا له: أنافقت يا فلان؟ قال: لا، والله لأتین رسول الله " فلأخبرنه، فأتى رسول الله " فقال: يارسول الله إننا أصحاب نواضح نعمل بالنهار، وإن معاذاً صلى معك العشاء، ثم أتى فافتتح بسورة البقرة، فأقبل رسول الله " على معاذ فقال: =يامعاذ! أفتان أنت! اقرأ بكذا، واقرأ بكذا+.

وفي رواية: =يامعاذ! أفتان أنت ثلاثاً اقرأ : =والشمس وضحاها+ و=سبح اسم ربك الأعلى، ونحوهما+. وفي رواية: =فتان، فتان، فتان+ ثلاث مرار أو قال: =فاتناً، فاتناً، فاتناً+. (2)

21 أن يوجه الواعظ الإنكار إلى نفسه تصريحاً، وهو يعني السامع تلميحاً: كأن يقول: مالنا لانتقي الله، ونمتثل أوامره، ونجتنب نواهيه، ونحو ذلك...

ويشير إلى هذا الأدب قوله تعالى فيما يقصه عن رجل يدعو

1 _ رواه البخاري (702) و(704) و(6110)، ومسلم (466).

2 _ البخاري (701 و 507 و 710 و 6106)، ومسلم (465).

أخرج مسلم في مقدمة صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: =أمرنا رسول الله " أن ننزل الناس منازلهم+. (1) ولقد اعتنت كتب السنة بهذا المعنى، كما اعتنت بذلك كتب أدب الطلب كثيراً.

ولو ألقى القارئ نظرة في بعضها لرأى ذلك جلياً. ومن ذلك على سبيل المثال: كتاب الجامع لأخلاق الراوي، وآداب السامع للخطيب البغدادي. ومما عقده من أبواب في ذلك الكتاب _الباب التاسع عشر، وعنوانه:

=باب: توقير المحدث طلبه العلم، وأخذه نفسه بحسن الاحتمال لهم والحلم+.

وساق جملة من الآثار تحت هذا الباب، ومن العنوانات التي جاءت تحت هذا الباب ما يلي:

- _ =إكرامه المشايخ وأهل المعرفة+.
- _ =تعظيم المحدث الأشراف ذوي الأنساب+.
- _ =تعظيم من كان رأساً في طائفته وكبيراً عند أهل نحلته+.
- _ =إكرامه الغرباء من الطلبة وتقريبهم+.
- _ =استقباله لهم بالترحيب+.
- _ =تواضعه لهم+.
- _ =تحسين خلقه معهم+.
- _ =الرفق بمن جفا طبعه منهم+

وتحت كل عنوان ساق x جملة من الآثار. (2)

ومن المراعاة للمشاعر أن لا يكثر من ذكر اسم شخص ينفر منه السامعون ولو كان كلامه حقاً، ويكفي في ذلك أن يُورد كلامه دون ذكر لشخصه.

وهذا ما يصنعه بعض العلماء كصنيع ابن أبي العز الحنفي x في كتابه (شرح العقيدة الطحاوية) حيث أورد كثيراً من كلام شيخ

1 _ مقدمة صحيح مسلم ص 20.

2 _ انظر الجامع ص 343 _ 355.

الإسلام ابن تيمية، والعلامة ابن القيم رحمهما الله دون ذكر لاسميها؛ لأن هدفه نشر الحق، ولو أنه ذكرهما بأعيانها لربما حصل نفرة من كتابه خصوصاً في ذلك الوقت. ومن المراعاة للمشاعر أيضاً أن يورد الكلام بعزوه إلى قائله إذا كان ممن له قبول عند السامعين. ومن ذلك ألا يذم شخصاً بعينه إذا كان في ذمه باسمه استثارة للسامعين

وإن كان ذلك المذموم يستحق الذم ويكفي في ذلك أن يبين الحق فيما يراد بيانه، ويبين الباطل في ذلك دون ذكر للأشخاص ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

23_ التثبت مما يقال، والنظر في جدوى نشره: فالواعظ اللبيب لا يتكلم في شيء إلا إذا تثبت من صحته؛ فإذا ثبت لديه ذلك نظر في جدوى نشره؛ فإن كان في نشره حفز للخير، واجتماع عليه نشره، وأظهره، وإن كان خلاف ذلك أعرض عنه، وطواه.

ولقد جاء النهي الصريح عن أن يحدث المرء بكل ما سمع. قال "كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع". (1)

ويتعين هذا الأدب في وقت الفتن والملمات، فيجب على الواعظ أن يتحرى هذا الأدب؛ حتى يقرب من السلامة، وينأى عن العطب.

قال الله تعالى: ﴿...﴾

1 _ رواه مسلم (5).

بل ليس من الحكمة أن يبدي الإنسان رأيه في كل ما يعلم حتى ولو كان متأنياً في حكمه، مصيباً في رأيه؛ فما كل رأي يُجهر به، ولا كل ما يعلم يقال.

بل الحكمة تقتضي أن يحتفظ الإنسان بأرائه إلا إذا استدعى المقام ذلك، واقتضته الحكمة والمصلحة.

وزن الكلام إذا نطقت فإنما يبدي العقول أو العيوب المنطق

قال أحد الحكماء: =إن لابتداء الكلام فتنة تروق وجدّة تعجب؛ فإذا سكنت القريحة، وعدل التأمل، وصفت النفس_ فليعد النظر، وليكن فرحُه بإحسانه مساوياً لغمّه بإساءته+. (1)

وقال ابن حبان x: =الرافق لا يكاد يُسبق كما أن العجل لا يكاد يَلْحَق وكما أن من سكت لا يكاد يندم كذلك من نطق لا يكاد يسلم. والعجل يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويحمد قبل أن يجرب، ويذم بعد ما يحمد، ويعزم قبل أن يفكر، ويمضي قبل أن يعزم.

والعجل تصحبه الندامة، وتعزله السلامة، وكانت العرب تُكَيِّب العجلة أمّ الندامات+. (2)

وذكر بسنده عن عمر بن حبيب قال: =كان يقال: لا يوجد العجول محموداً، ولا الغضوب مسروراً، ولا الحر حريصاً، ولا الكريم حسوداً، ولا الشّره غنياً، ولا الملول ذا إخوان+. (3)

ولهذا تتابعت نصائح الحكماء على التريث خصوصاً عند إرادة الإقدام على مواقع الخطر، قال المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتماعاً لنفسٍ مُرّة حازت من العلياء كل مكان (4)
وقال:

1 _ زهر الأدب للحصري القيرواني 154/1.

2 _ روضة العقلاء ص216.

3 _ روضة العقلاء ص 217.

4 _ ديوان المتنبي بشرح العكبري 4/174.

وكل شجاعة في المرء ولا مثل الشجاعة في الحكيم
تغني (1)

25_ التمهيد والتدرج في العرض: مثال ذلك أن يقصد الواعظ إلى أمر فيه مشقة، فيضع أمامه تمهيداً يخفف وقعه، ويقلل شأنه، حتى لا تكبره النفوس، وترتخي دونه العزائم خوراً.
ومثال هذا ما سلكه التنزيل في التكليف بفريضة الصيام؛ حيث

شرعه أولاً في أمر مجمل فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ البقرة: 183. ثم أتى بالتمهيد في قوله: ﴿فَصِيَامُ الْبَلَدِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمِ الْأُخْرَىٰ﴾ البقرة: 197. وذكر أن هذا النوع من القربة قد فرض على الأمم السالفة، فقال

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ البقرة: 183. وهو عمل مألوف، وشريعة غير خاصة، وفي هذه التذكرة ما يُدخله في قبيل السنن الجارية، ويجعله أمراً هيناً.

ثم أشعرهم بأن أيامه في الحساب قليلة فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ البقرة: 183.

وبعد أن هيباً النفوس لقبول فريضته قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ البقرة: 183. ثم أتى بالتمهيد في قوله: ﴿فَصِيَامُ الْبَلَدِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمِ الْأُخْرَىٰ﴾ البقرة: 197. وذكر أن هذا النوع من القربة قد فرض على الأمم السالفة، فقال

وجرى التنزيل على هذه السنة عند الترغيب في أمر صعب المركب، شديد الأثر على النفس، وهو الصبر على الأذى، ومقابلة الإساءة بالعفو؛ فأمر بالعدل في المجازاة، ونهى عن تجاوز المثل

في العقوبة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ البقرة: 183. ثم بين في

قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ أُمَّةَ مُعَاذَ اللَّهِ لِمَنْ يُجَادِلُ أَتَى عَلَى الْكُفْرَانِ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾

لهم الإغضاء عن السيئة، وترك المؤاخذة عليها؛ فالصفح عن الأذى مع القدرة على الانتقام ضرب من الكرم، ومظهر من مظاهر الرحمة، وأخذ بالعزيمة الراشدة.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا الصَّبْرَ طَبَقًا مُبِينًا﴾
النحل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا الصَّبْرَ طَبَقًا مُبِينًا﴾
الرسول " وهو أسرع الناس إلى الاستقامة على الطريقة؛ فيجدون من سنة التآسي به نشاطاً للطاعة، وباعثاً على التجمل بالصبر، وإن ثقلت على النفوس وطأته.

ومن هذا القبيل تذكير الناس بعاقبة العمل الصالح وإن كان شاقاً على النفوس، كما قال تعالى في شأن الجهاد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا الصَّبْرَ طَبَقًا مُبِينًا﴾
ثم بين عز وجل ثقله على النفوس بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا الصَّبْرَ طَبَقًا مُبِينًا﴾.

ثم بين أن المكروه قد يكون هو الخير فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا الصَّبْرَ طَبَقًا مُبِينًا﴾
البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا الصَّبْرَ طَبَقًا مُبِينًا﴾.

وبيّن أن الدعة وترك الجهاد محبوب للنفوس، ولكن ذلك المحبوب قد يكون شراً، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا الصَّبْرَ طَبَقًا مُبِينًا﴾
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا الصَّبْرَ طَبَقًا مُبِينًا﴾
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا الصَّبْرَ طَبَقًا مُبِينًا﴾
البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا الصَّبْرَ طَبَقًا مُبِينًا﴾.

ومن حسن السياسة أيضاً ألا يجهر الواعظ أحياناً برأيه الصريح في صدر مقاله، خصوصاً إذا كان يريد طرْحَ أمرٍ لم يألفه الناس.

وإنما يبتدئ بما يخف على المخاطبين سماعه من المعاني الحائمة حول الغرض، ثم يعبر عن المراد بلفظ مجمل، ويدنو من

ايضاحه شيئاً فشيئاً؛ حتى لايفصح عنه إلا وقد ألفتة نفوسهم، وهدأت له خواطرهم.

وعلى هذه الطريقة جرى ذلك المؤمن من آل فرعون؛ فقد كان يكتُم إيمانه، وهو يحب أن يظهره، ويدعو قومه إلى مثله، وكان يخشى من التصريح بعقيدته بادرة غضبهم، أو انتقامهم منه، حتى اغتتم وقت إجماعهم على قتل موسى عليه السلام فرصة، وقام ينكر عليهم هذه المؤامرة المخزية، وتخلص إلى أن دعاهم إلى الإيمان بما بُعث به هذا الرسول دعوةً ظاهرة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الْفِرْعَوْنُ إِذْ سَأَلَ أَهْلَهُ بِمُوسَىٰ بِآيَاتِهِ ۚ قَالَ أَإِيَّادُكُمُ الْيَوْمَ أَدْعَايُهُمْ ۖ فَسَاءَ مَا يَزْمُرُونَ ﴿١٠٠﴾

فقد فاتحهم بالإنكار على قتله وهو لا يدل على أنه مصدق برسالته؛ إذ قد ينهى العاقل عن سفك دم الرجل أو اضطهاده وهو من أبغض الناس إليه؛ تألماً من مشهد الظلم، أو حذراً مما ينشأ عنه من فتنة.

وَدَلُّ بَقُولِهِ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الْفِرْعَوْنُ إِذْ سَأَلَ أَهْلَهُ بِمُوسَىٰ بِآيَاتِهِ ۚ قَالَ أَإِيَّادُكُمُ الْيَوْمَ أَدْعَايُهُمْ ۖ فَسَاءَ مَا يَزْمُرُونَ ﴿١٠٠﴾

على ما لهذا الرجل من فضل في العقيدة، وأوماً إلى أنه لم يجئ شيئاً نكراً يستحق به هذه العقوبة الصارمة، وذكرهم إذ قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الْفِرْعَوْنُ إِذْ سَأَلَ أَهْلَهُ بِمُوسَىٰ بِآيَاتِهِ ۚ قَالَ أَإِيَّادُكُمُ الْيَوْمَ أَدْعَايُهُمْ ۖ فَسَاءَ مَا يَزْمُرُونَ ﴿١٠٠﴾

بالدلائل القائمة على صدقه في دعوى الرسالة، وقد أخذ يتقرب بهذه الجملة في دعوتهم إلى الإيمان به، ولم يرد التظاهر بأنه من شيعته، فعزل نفسه عن جاءهم بهذه البيّنات، وأضاف مجيئها إليهم خاصة، ثم استرسل في موعظته المنسوجة في أدب الإنصاف إلى أن صدع ببطلان نخلتهم، ودعاهم إلى دين الحق بقوله الصريح كما في قوله تعالى

فيما يقصه عنه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الْفِرْعَوْنُ إِذْ سَأَلَ أَهْلَهُ بِمُوسَىٰ بِآيَاتِهِ ۚ قَالَ أَإِيَّادُكُمُ الْيَوْمَ أَدْعَايُهُمْ ۖ فَسَاءَ مَا يَزْمُرُونَ ﴿١٠٠﴾

وَحَصِّنْ فَرَجَهُ؛ فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء+. (1)
 26_ براعة الأسلوب، ومراعاة مقتضيات الأحوال: فذلك مما يأخذ بالألباب، ويجعل الموعظة تأخذ طريقها إلى القلوب؛ فالعمل على إنقاذ النفوس من أودية الغواية، والإقبال بها إلى مطالع السعادة مسلك وعر، ولا يمر فيه على استقامة تامة إلا من بلغ في صناعة البيان أمداً قصياً.

ولا يكفي في الدعوة أن يكون في يد القائم بها حجة، أو موعظة يلقبها في أي صورة شاء؛ ذلك أن المخاطبين يختلفون ذوقاً، وثقافةً، واختلاف زمن وبيئة.

ومن اللائق أن تصاغ دعوة كل طائفة في أدب يليق بأذواقها وثقافتها؛ ذلك أن الموعظة ثقيلة على السمع، مُسْتَحْرَجَةٌ على النفس؛ لا اعتراضها الشهوة، ومضادتها للهوى، حتى قال يونس بن عبيد: =لو أمرنا بالجزع لصبرنا+. (2)

يشير إلى ثقل الموعظة على السمع، وجنوح النفس على مخالفتها.

ولكن صَوَّغَهَا بأسلوب رائع يجعلها خفيفةً على السمع، سهلة النفوذ إلى القلب.

وقد تكون معاني الموعظة حاضرةً في ذهن الشخص، ولا يجد في نفسه تأثراً بها، حتى إذا عُرِضَتْ عليه تلك المعاني في أسلوب بارع وقعت منه موقع الإعجاب، حتى لكأنها معانٍ جديدة لم يسبق له بها علم. (3)

ولا غرو إذاً أن ترى الرجلين يلقيان موعظةً في باب واحد، وفي غرض واحد وبينهما في التأثير ما بين السماء والأرض، وربما كان ذلك بسبب أسلوب العرض؛ فتري أن نفوس الناس قد

1 _ أحمد 5 / 256، 257، وقال الألباني في الصحيحة (370): =وهذا سنده سند صحيح، رجاله كلهم رجال الصحيح+.

2 _ بهجة المجالس لابن عبد البر 364/3، وانظر البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي 9 / 138.

3 _ انظر الدعوة والإصلاح ص 25_26، و65.

أقبلت على أحدهما، وأسأغت موعظته إساعة الضمان للماء القراح، وتراها جَفَتْ وجفلت عن موعظة الآخر؛ فزلت عن القلوب كما زلت الصفواء بالمتنزل.

ولهذا كان حرياً بالواعظ أن يكون ذا دراية بأحوال الناس، وأن يصوغ موعظته بما تقتضيه تلك الحال؛ فالناس مختلفون مشارب وعادات، وأخلاقاً وسناً، ومهنةً ومرتبتهً، ولكل طائفة من الناس أحوال تقتضي نوعاً من الخطاب لا تقتضيه أحوال الجماعة الأخرى؛ فالجماعة الثائرة _ مثلاً _ تخاطب بعبارة هادئة؛ لتكون برداً وسلاماً على القلوب.

والجماعة الخنيسة تخاطب بعبارات مثيرة للحمية، موقظة للهمة، حافزة للعزيمة.

والجماعة التي شطت وركبت رأسها تخاطب بعبارة فيها قوة العزم، ونور الحق، وفيها إرعادة المُنذر، وَيَقْظَةُ المنقذ، وفيها روح الرحمة وحسن الإيثار؛ ليجتمع الترغيب مع الترهيب، ومع سيف النعمة ریحان الرحمة.

ثم إن الشباب يثير حماسهم، ويوقظ قلوبهم، ويدفع إلى إقناعهم خطاب لا يثير عاطفة الشيوخ؛ لأن الملائم لهؤلاء نوعٌ غيرُه. والأغنياء يلائمهم نوع من الكلام لا يقتضيه مقام الموعظة لمن ليسوا كذلك.

والعلماء يجتذبهم التوقير، وعمق الكلام، ودقته. وموعظة الرؤساء تقتضي تجملاً بالحياء، والرزانة، والركانة، والهدوء، كما تقتضي ابتعاداً عن التملق المرزي، وعن أي مظهر من مظاهر التعالي، وتقتضي أخذاً بالتلطف، وحسن المدخل، والتلميح بالاعتراض إن كان هناك ما يقتضي ذلك.

وهكذا لكل جماعة نوع من الخطاب؛ فعلى الواعظ أن يجيء إليه من ناحيته؛ فذلك أدعى إلى وصوله إلى مراده. (1)

ثم إن نفرأ من الناس غير قليل يستهويهم رونق الألفاظ أكثر من حكمة معانيها؛ فلا ينبغي أن نستخف بهؤلاء، وأن ندعهم

1 _ انظر الخطابة ص 43.

لِعُصْبَةِ الْمُضْلِينَ يَعْضُونَ عَلَيْهِمُ الْأَرْءَاءَ الْمُنْحَدِرَةَ فِي شَقَاءٍ. وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِأَوْلَائِكَ الْمُضْلِينَ سَبِيلٌ عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ سِوَى أَنَّهُمْ يَحْتَرُونَ لَهُمُ الْقَوْلَ تَحْبِيرًا فَمَنْ الْمَيْسُورُ عَلَى دَعَاةِ الْإِصْلَاحِ أَنْ يَسَابِقُوهُمْ فِي مَضْمَارِ الْبِرَاعَةِ؛ فَإِنَّهُمْ مَتَى أَلْبَسُوا الدَّعْوَةَ إِلَى الْحَقِّ وَالْفَضِيلَةِ أَسَالِيبَ بَدِيعَةٍ أَحْرَزُوا الْغَايَةَ، وَأَنْقَدُوا أَوْلَائِكَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ ضَلَالٍ بَعِيدٍ. (1)

وَلَا يَعْنِي ذَلِكَ أَنْ يَتَكَلَّفَ الْوَاعِظُ السَّجْعَ، وَيَتَحَرَى دَقَائِقَ الْإِعْرَابِ، وَوَحْشِيَّ اللَّغَةِ. وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ أَنْ يَلْبَسَ مَوْعِظَتَهُ ثَوْبًا جَمِيلًا يُفْهَمُ، وَيَسْتَحْسَنُ، وَيَقَعُ مَوْقِعَهُ فِي الْقُلُوبِ.

فَهَا هُوَ ابْنُ الْجُوزِيِّ X وَهُوَ الْإِمَامُ الْمَتَمَرِسُ فِي الْوَعْظِ وَأَسَالِيبِهِ يَقُولُ: «فَالْتَحْقِيقُ مَعَ الْعَوَامِ صَعْبٌ، وَلَا يَكَادُونَ يَنْتَفِعُونَ بِمُرِّ الْحَقِّ، إِلَّا أَنْ الْوَاعِظُ مَأْمُورٌ بِأَنْ لَا يَتَعَدَى الصَّوَابَ، وَلَا يَتَعَرَّضُ لِمَا يَفْسُدُهُمْ، بَلْ يَجْذِبُهُمْ إِلَى مَا يَصْلِحُ بِالطَّفِّ وَجْهَهُ. وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى صِنَاعَةٍ؛ فَإِنَّ مِنَ الْعَوَامِ مَنْ يَعْجَبُهُ حَسَنُ اللَّفْظِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْجَبُهُ الْإِشَارَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْقَادُ بِبَيْتِ شَعْرٍ. وَأَحْوجُ النَّاسِ إِلَى الْبَلَاغَةِ الْوَاعِظُ؛ لِيَجْمَعَ مَطَالِبَهُمْ. وَلَكِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ فِي اللَّازِمِ الْوَاجِبِ، وَأَنْ يُعْطِيَهُمْ مِنَ الْمَبَاحِ فِي اللَّفْظِ قَدْرَ الْمَلْحِ فِي الطَّعَامِ، ثُمَّ يَجْتَذِبُهُمْ إِلَى الْعِزَائِمِ، وَيَعْرِفُهُمُ الطَّرِيقَ الْحَقَّ. (2)

هَذَا وَسِيَّاتِي مَزِيدٌ بِسَطٍ لِلْأَسَالِيبِ الَّتِي يَحْسَنُ سُلُوكَهَا فِي الْمَوْعِظَةِ فِي الْفُقَرَاتِ التَّالِيَةِ.

27_ حَسَنُ الْإِسْتِفْتَاكِ: فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ لِمَوْعِظَتِهِ افْتِتَاحًا حَسَنًا أَنْ يَعْنَى بِهِ تَمَامَ الْعِنَايَةِ، وَأَنْ يَجْمَلَهُ بِمَا يَسْتَطِيعُ مِنْ وَسَائِلِ التَّجْمِيلِ الْمُنَاسِبَةِ، الَّتِي تَجْتَذِبُ الْأَذْهَانَ، وَتَهَيِّئُ الْأَسْمَاعَ، وَتَقُودُ النُّفُوسَ إِلَى الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ، وَإِلَى أَنْ تَتَقَبَّلَهُ بِقَبُولٍ حَسَنٍ؛ فَإِنَّ الْفِكْرَةَ الْأُولَى عَنْ شَيْءٍ، أَوْ أَمْرٍ، أَوْ شَخْصٍ تَنْثَبِتُ وَتَقْرُّ بِالنَّفْسِ.

1_ انظر الدعوة والإصلاح ص 53_ 54.
2_ صيد الخاطر لابن الجوزي ص 187_ 188.

ومحوها يحتاج إلى عناء؛ فإن كانت حسنة صَعِبَ تهجينها، وإن كانت سيئة صعب تزيينها.

والافتتاح_ إن وجد_ أولُ ما يلقي به الواعظ الجماعة؛ فإن وقع في نفوسهم موقع القبول كانت الموعظة على غرارهِ، واستطاع من خلاله أن يصل قلوبهم.

وإن لم يصادف قبولاً صعبت الحال، واحتاج الأمر إلى خبير بأحوال النفوس، حاذق في طُرُق العلاج، ووسائل الشفاء من ذلك النَّفَّار وهذا الشَّماس(1)

قال أبو هلال العسكري_ رحمه الله_:= إذا كان الابتداء حسناً بديعاً ومليحاً ورشيقاً كان داعية الاستماع لما يجيء بعده من الكلام.

ولهذا المعنى يقول الله_ عز وجل_: ﴿وَلَقَدْ جَاءتْكُمْ رَسُولَاتٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُهْتَدُونَ﴾ (١) و ﴿وَلَقَدْ جَاءتْكُمْ رَسُولَاتٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُهْتَدُونَ﴾ (٢) و ﴿وَلَقَدْ جَاءتْكُمْ رَسُولَاتٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُهْتَدُونَ﴾ (٣) و ﴿وَلَقَدْ جَاءتْكُمْ رَسُولَاتٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُهْتَدُونَ﴾ (٤) و ﴿وَلَقَدْ جَاءتْكُمْ رَسُولَاتٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُهْتَدُونَ﴾ (٥) و ﴿وَلَقَدْ جَاءتْكُمْ رَسُولَاتٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُهْتَدُونَ﴾ (٦) و ﴿وَلَقَدْ جَاءتْكُمْ رَسُولَاتٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُهْتَدُونَ﴾ (٧) و ﴿وَلَقَدْ جَاءتْكُمْ رَسُولَاتٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُهْتَدُونَ﴾ (٨) و ﴿وَلَقَدْ جَاءتْكُمْ رَسُولَاتٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُهْتَدُونَ﴾ (٩) و ﴿وَلَقَدْ جَاءتْكُمْ رَسُولَاتٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُهْتَدُونَ﴾ (١٠)

فيقرع أسماعهم بشيء بديع ليس لهم بمثله عهد؛ ليكون ذلك داعية لهم إلى الاستماع لما بعده، والله أعلم بكتابه.

ولهذا جعل أكثر الابتداءات بـ: ﴿لَقَدْ جَاءتْكُمْ رَسُولَاتٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُهْتَدُونَ﴾ (1) لأن النفوس تتشوق للثناء على الله؛ فهو داعية الاستماع+. (2)

هذا وإن الخطباء يختلفون في استفتاحاتهم؛ فمنهم من يستفتحها بما يشير إلى موضوعها، ويلوِّح بالقصد منها. ومنهم من يبتدئ خطبته بأية، أو حديث، أو حكمة، أو مثل سائر.

ومن الأساليب البديعة ما يبتدئ به بعضهم؛ حيث يبتدئ بالثناء على السامعين؛ ليهيء نفوسهم لتلقي كلامه بالقبول؛ إذ لا شيء يهز أعطاف السامعين كالثناء عليهم، خصوصاً إذا كان من غريب عنهم.

وذلك باب واسع يصح الدخول فيه بشرط الاتزان، وضبط

1_ انظر الخطابة ص79.

2_ كتاب الصناعتين ص 437.

النفس.
ومنهم من يتودد للسامعين، ويتواضع لهم، ويخاطبهم بأحسن صفاتهم، ويشعرهم بمحبتهم، وأنه ساع لما فيه مصلحتهم. ومهما يكن من أمر الافتتاح فينبغي أن يكون قصيراً موجزاً؛ لئلا يشغل الذهن، ويضيع الوقت. وينبغي أيضاً أن لا يكون مبتدلاً تمجه الأسماع، ولا تسيغه النفوس.

ثم إن الافتتاح قد لا يلزم خصوصاً إذا أراد الإيجاز، بل يدخل في الموضوع مباشرة. ومما ينبغي التنبيه عليه أن يتجنب الواعظ ما يزعج السامعين في مفتتح كلامه، كما كان الحجاج بن يوسف يفعل في افتتاح خطبه؛ حيث كان يبدأ بما يزعج السامعين كقوله في أحد افتتاحاته: أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني(1)

ومما ينبغي أيضاً أن يتجنب كل ما يُستقبح ويستجفى من الكلام. ولهذا عني علماء البلاغة في مبادئ الكلام، وعقدوا له الفصول في كتبهم، ونبهوا على ما ينبغي للكاتب، والشاعر، والخطيب في هذا الشأن.

قال أبو هلال العسكري x: =قال بعض الكتاب: أحسنوا معاشر الكتاب الابتدئات؛ فإنهن دلائل البيان. وقالوا: ينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره، ومفتتح أقواله مما يُتطير منه، ويُستجفى من الكلام والمخاطبة، والبكاء، ووصف إقفار الديار، وتشتيت الألاف، ونعي الشباب، وذم الزمان لا سيما في القصائد التي تتضمن المدائح والتنهاني، ويستعمل ذلك في المراثي، ووصف الخطوب الحادثة؛ فإن الكلام إذا كان مؤسساً على هذا المثال تطير منه سامعه، وإن كان يعلم أن الشاعر إنما يخاطب نفسه

1 _ انظر الخطابة 82 _ 83.

دون الممدوح+. (1)
 ثم ضرب x أمثلة على ذلك، منها قوله: =أنشد البحترى أبا سعيد
 قصيدة أولها:
 لك الويل من ليلٍ تطاول ووشكُ نوى حيٍّ تزمُّ أباعره
 آخره
 فقال أبو سعيد: بل الويل والحرب لك، فغيره، وجعله: =له
 الويل+ وهو رديء أيضاً.
 وأنشد أبو مقاتل الداعي:
 لا تقل بشري ولكن بشريان غرة الداعي ويوم المهرجان
 فأوجعه الداعي ضرباً، ثم قال: هلا قلت:
 إن تقل بشري فعندي بشريان+. (2)
 ثم ذكر أبو هلال x أمثلة لابتداءات جيد، ومن ذلك قوله:
 =ومن أحكم ابتداءات العرب قول السموأل:
 إذا المرء لم يدنس من اللؤم فكل رداء يرتديه جميل
 عِرضه فليس إلى حسن الثناء سبيل
 وإن هو لم يحمل على النفس (3)
 ضيمها
 وقال بعضهم: أحكم ابتداءاتهم قول لبيد :=
 ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
 وبعضهم يجعل ابتداءات هذه القصيدة:
 ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال
 وباطل(4)

ومما ينبغي تَجَنُّبُهُ في مفتتح الموعظة تحريج المخاطبين،
 وإلزامهم بسماع الموعظة، وتخويفهم من القيام قبل أن يكمل
 موعظته خصوصاً إذا كانت مفاجئة وعلى غير موعد.

1 _ كتاب الصناعتين ص 431.

2 _ كتاب الصناعتين ص 432.

3 _ كتاب الصناعتين ص 433.

4 _ كتاب الصناعتين ص 434.

أو تعجيل هو هدي النبي " في كلامه، ومواعظه.
قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: =كان النبي "
يحدّث حديثاً لو عدّه العادُّ لأحصاه+. (1)

وقالت: =إن رسول الله " لم يكن يسرد الحديث كسرديكم+. (2)
قال ابن حجر x في شرح الحديث الأول: =قولها: =لو عدّه
العاد لأحصاه+: أي لو عدّ كلماته، أو مفرداته، أو حروفه لأطاق
ذلك، وبلغ آخرها.

والمراد بذلك المبالغة في الترتيل، والتفهم+. (3)
وقال رحمه الله في شرح الحديث الثاني: =قولها: =لم يكن
يسرد الحديث كسرديكم+: أي يتابع الحديث استعجالاً بعضه إثر
بعض؛ لئلا يلتبس على المستمع+. (4)

وجاء في سنن أبي داود عن جابر ÷ قال: =كان في كلام
رسول الله " ترتيل، أو ترسيل+. (5)

وفيه أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: =كان كلام
رسول الله " كلاماً فصلاً يفهمه كل من سمعه+. (6)

قال أبو هلال العسكري x: =علامةُ سكونِ نفسِ الخطيب
ورباطة جأشه هُدوءه في كلامه، وتمهله في منطقه.
قال ثمامة: كان يحيى بن جعفر أنطق الناس؛ فقد جمع الهدوء،
والتمهّل، والجزالة، والحلاوة.

ولو كان في الأرض ناطق يستغني عن الإشارة لكانه+. (7)
وقال ابن جماعة x في أدب المتكلم: =ولا يسرد الكلام سرداً،

بل يرتله ويرتبه، ويتمهل فيه، ليفكر فيه هو وسامعه+. (8)
31_ ملاحظة نبرة الصوت : ويراعى في ذلك أن تكون

1_ أخرجه البخاري (3567)، ومسلم (2493).

2_ أخرجه البخاري (3568)، ومسلم (2493).

3_ 4_ فتح الباري 6 / 669.

5_ أبو داود (4838)، وقال الألباني في صحيح الجامع (4823): =حسن+.

6_ أبو داود (4839)، وقال الألباني في صحيح الجامع (4826): =حسن+.

7_ كتاب الصناعتين ص 22_23.

8_ تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ص 57.

مسموعة بوضوح، وأن تكون وسطاً بين رفع الصوت الذي يَخْرُجُ بصاحبه عن طوره ويؤدي المخاطبين، وبين رخاوة الصوت التي تفقد الموعظة أثرها، وتجلب التماوت للسامعين.

وقد يوهب بعض الناس صوتاً جهورياً فيحسن به أن يضبط نبرة صوته؛ حتى لا يرتفع أكثر من اللازم خصوصاً مع وجود المكبرات.

ومنهم من صوته خافتٌ جداً؛ فيحسن به أن يحاول إسماع المخاطبين قدر استطاعته.

وبالجملة فإن الاعتدال في رفع الصوت وخفضه هو المطلوب.

قال ابن جماعة x: = ألا يرفع صوته زائداً على قدر الحاجة، ولا يخفضه خفضاً لا يحصل معه كمال الفائدة+. (1)

وقال: = والأولى ألا يجاوز صوته مجلسه، ولا يَقْصِرَ عن سماع الحاضرين؛ فإن حضر معهم ثقيل السمع فلا بأس بعلو صوته بقدر ما يُسمعه+. (2)

ثم إن الواعظ البارع يستطيع التحكم بنبرة صوته؛ فحين يَحْسُنُ رفع الصوت فإنه يرفعه، وحين يحسن خفضه يخفضه.

جاء في صحيح مسلم عن النبي " أنه إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: صباحكم ومساكم. (3)

32_ حسن الاستخدام للتكرار: فإن للتكرار أثراً كبيراً في جذب الانتباه، وتأكيد المعاني، وتقريرها في الأذهان.

والواعظ البارع يحسن استخدام التكرار، ويوقعه في مواقفه اللائقة به؛ فإذا استدعى المقام التكرار، وكان فيه مزيد فائدة وتأكيد وتقرير كان لائقاً حسناً.

وذلك كأن يكون في الكلام موضع اهتمام، ويخشى أن يمر على أذهان السامعين دون أن يستقر في نفوسهم.

1_ تذكرة السامع والمتكلم ص 74.

2_ تذكرة السامع والمتكلم ص 75.

3_ مسلم (867).

وإذا كان التكرار بهذه المثابة فإن يحسن بالواعظ أن يأخذ به عند الحاجة ما لم يجد أن المقام يستدعي الإيجاز.

ولقد كان النبي " يأخذ بهذا الأسلوب، وربما أعاد الجملة ثلاث مرات إذا كان المقام يقتضي ذلك. (1)

ولهذا عقد الإمام البخاري x في صحيحه باباً بعنوان : =باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه+.

وساق فيه عدة أحاديث، منها ما رواه عن أنس ÷ عن النبي " : =أنه كان إذا سلّم سلّم ثلاثاً، وإذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً+. (2)

وعن أنس أيضاً عن النبي " : =أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً؛ حتى تُفهم عنه+ الحديث. (3)

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال تخلف رسول الله " في سفر سافرناه، فأدركنا وقد أرهقنا الصلاة صلاة العصر ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى

صوته: =ويلٌ للأعقاب من النار+ مرتين أو ثلاثاً. (4)

والأحاديث في ذلك كثيرة منها قوله: =ألا وقول الزور، فما زال يكررها+. (5)

وقال ابن عمر رضي الله عنهما قال النبي " : =هل بلّغت+ ثلاثاً. (6)

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي " قال: =لا صام من صام الأبد، لا صام من صام الأبد، لا صام من صام

الأبد+. (7)

ومن الأساليب الملائمة في التكرار، أن يكون بعبارات مختلفة، وأساليب متنوعة، وأن يكون النظر فيه إلى المعنى من جوانب

1 _ انظر محمد رسول الله ص 185، والخطابة ص 66.

2 _ البخاري (94).

3 _ البخاري (95).

4 _ البخاري (96)، ومسلم (241).

5 _ البخاري (2586).

6 _ رواه البخاري (1742).

7 _ رواه مسلم (1159).

متعددة.
أما إذا لم يكن هناك حاجة للتكرار فلا يحسن بالواعظ أن يأخذ به؛
والحالة هذه _ يعد من عيوب الكلام، ومما يورث الملالة، ويولد السامة.

وذلك كحال من يعيد الكلام أو القصة، أو بعض الجمل في الموعظة دون مسوغ لذلك، أو أن يعيد الموعظة بعينها بعد فترة وجيزة في المكان الذي ألقاها فيه؛ فالنفوس تكره المعاد، وتمل المكرر، إذا لم يكن هناك داع له.
= قال محمد بن صبيح المعروف بالسَّمَاك لجاريتته: كيف ترين ما أعظ الناس؟

قالت: هو حسن، إلا أنك تكرره.
قال: إنما أكرره؛ ليفهمه من لم يكن فهمه.
قالت: إلى أن يفهمه البطيء يثقل على سماع الذكي+. (1)
= واستعيد(2) ابن عباس حديثاً، فقال: لولا أنني أخاف أن أغضَّ من بهائه، وأريق من مائه، وأخلق من جدِّته _ لأعدته+. (3)
وقال أبو تمام يصف قصائده:

منزهة من السرِّق المؤرِّى مكرمة عن المعنى المعاد (4)
وقال آخر:

إذا تحدثت في قوم؛ لتؤنسهم
فلا تكرِّ حديثاً إن طبعهم
من الحديث بما يمضي وما
ياتي

موكِّلٌ بمعادة المعادات (5)
ومما يحسن التنبيه عليه أنه لا بأس بتكرار الموعظة الواحدة في أكثر من مكان؛ لأن الحاجة قد تقتضي ذلك، ولا يلزم الواعظ

1 _ زهر الأدب 1 / 196.

2 _ استعيد: طلب منه الإعادة.

3 _ زهر الأدب 1 / 196.

4 _ ديوان أبي تمام بشرح التبريزي 382/1.

5 _ إصلاح المجتمع ص360.

أن يأتي بموعظة جديدة في كل مكان.
بل عليه ألا يضيق ذرعاً بإعادة ما يقول، أو تكراره للموعظة
إذا ألقاها في أماكن متعددة، أو ألبسها ثياباً جديدة ملائمة.
33_ توشيح الموعظة بالقرآن الكريم والأحاديث الصحيحة:
فيحسن بالموعظة أن تُجَمَّلَ بالآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة؛
فالكتاب العزيز، والحديث الشريف هما الذروة في البلاغة، وفيهما
اللفظ الجزل، والأسلوب الرائع، والسلامة من الخطأ.
كما أن لهما قوة في التأثير، ورنيناً في الأذان، ورهبة في
القلوب، وجمالاً في الأنفس، وبهجة في المشاعر.
وفيهما فصل الخطاب، وقطع كل جواب، والرد على كل
اعتراض.
فلا يليق _إذا_ أن تخلوا الموعظة من إيراد الآيات والأحاديث
فيها.

وكانوا يسمون الخطبة التي تخلوا من ذلك: =الشوهاء+.
قال الجاحظ: =وعلى أن خطباء السلف الطيب، وأهل البيان
من التابعين بإحسان مازالوا يسمون الخطبة التي لم تبتدئ
بالتحميد، وتستفتح بالتحميد: =البتراء+.
ويسمون التي لم توشح بالقرآن، وتزَيَّن بالصلاة على
النبي" =الشوهاء+.

وقال عمران بن حطان: خطبت عند زياد خطبة ظننت أني لم
أَقْصِرَ فيها عن غاية، ولم أدع لطاعن علة؛ فمررت ببعض
المجالس، فسمعت شيخاً يقول: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في
خطبته شيء من القرآن.

وخطب أعرابي، فلما أعجله بعض الأمر عن التصدير
بالتحميد، والاستفتاح بالتمجيد قال: =أما بعد بغير ملالة لذكر الله،
ولا إثارة غيره عليه فإننا نقول: بكذا، ونسأل كذا+؛ فراراً من أن
تكون خطبته بتراء، أو شوهاء+.(1)

34_ سَوَّقُ القِصَصِ الصَّحِيحَةِ المؤثرة: فالقصص تحمل في

طياتها الدروس، والعبر، كما أنها سبيل التأسى، وطريق النظر في العواقب.

والقرآن الكريم حافل بالقصص التي وردت في مواضع متعددة، وفي سياقات مختلفة.

ومن تلك القصص قصص الأنبياء عليهم السلام_ كقصة نوح، وإبراهيم، ويوسف، وموسى وعيسى وغيرهم.

ومن ذلك قصص الطواغيت، وأئمة الكفر كفرعون، وقارون، وهامان، وغيرهم.

وكذلك السنة النبوية فهي مليئة بالقصص.

فيحسن بالواعظ أن يأخذ بهذا الأسلوب في بعض الأحيان، وأن يحرص على صحة القصة التي يسوقها.

كما يحسن أن ينوع في القصص، وأن يستنبط منها العبر، والدروس؛ فيورد على سبيل المثال قصص أهل الإيمان، وما حصل لهم من البلاء وكيف كانت العقوبة لهم.

ويسوق قصص أهل الكفر والفسوق وماذا حل بهم من الشقاء، وما ينتظرهم في الآخرة من أليم العقاب وهكذا...

ويجمل به أن يربط ذلك بحاضر الناس، وأن يبين ما يحل بمن طغى وتجبر وأثر الحياة الدنيا من المثالات.

ويحسن به ألا يبالغ في إيراد القصص، وأن يتجنب ما ليس صحيحاً منها، أو ما يظن أن السامعين لن يصدقوه إذا قالها.

35_ توشية الموعظة بالحكم الرائعة، والأشعار الجميلة الرائقة:

فذلك مما تهتز له النفوس، ويحسن وقعه في الأسماع، خصوصاً إذا كان الاستشهاد بها مناسباً ملائماً؛ فيحسن أن تُجَمَّل المواعظ العامة أحياناً بما يناسب المقام، ويتصل بالموضوع.

قال محمد بن سلام عن بعض أشياخه قال: =كان عمر بن الخطاب ÷ لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر+. (1)

وكثيراً ما يَنْهَضُ الرجل للعمل الصالح يكون في غفلة عنه، وما ينبهه إلا بيت شعر يحتوي على حكمة.

1 _ البيان والتبيين 1 / 241.

قال ابن جريج x: = ما ظننت أن الله عز وجل ينفع أحداً بشعر عمر بن أبي ربيعة حتى سمعت وأنا باليمن منشداً ينشد قوله:

بِاللهِ قَوْلِي لَهُ فِي غَيْرِ مَعْتَبَةٍ ماذا أردتَ بطولِ المَكْتِ فِي
إِنْ كُنْتَ حَاوَلْتَ دُنْيَا أَوْ نَعِمْتَ اليمن
بِهَا فما أخذتَ بتركِ الحجِ من
ثمن

فحركني ذلك على الرجوع إلى مكة، فخرجت مع الحاج وحججت + (1)

وجاء هذا الخبر في وفيات الأعيان أن ابن جريج قال: = كنت مع معن بن زائدة باليمن فحضر وقت الحج، ولم تحضرني نية، فخطر ببالي قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

بِاللهِ قَوْلِي لَهُ فِي غَيْرِ مَعْتَبَةٍ ماذا أردتَ بطولِ المَكْتِ فِي
إِنْ كُنْتَ حَاوَلْتَ دُنْيَا أَوْ نَعِمْتَ اليمن
بِهَا فما أخذتَ بتركِ الحجِ من
ثمن

قال: فدخلت على معن، فأخبرته أنني قد عزمتم على الحج، فقال لي: ما يدعوك إليه ولم تكن تذكره؟ فقلت: ذكرت بيتين لعمر بن أبي ربيعة، أنشدته إياها، فجهزني، وانطلقت + (2)

36 صوغ التشابيه، وضرب الأمثلة: فمن الأساليب الناجعة النافعة في الوعظ صوغ التشابيه البديعة، وضرب الأمثلة الرائعة. وللتشبيه، والتمثيل أثر كبير في جعل الحقائق الخفية واضحة، والمعاني الغريبة قريبة مألوفة.

وعلى هذا النحو تجري كثير من نصوص الوحيين.

قال الله تعالى في شأن المنافقين: ﴿۱﴾ ﴿۲﴾ ﴿۳﴾ ﴿۴﴾ ﴿۵﴾ ﴿۶﴾ ﴿۷﴾ ﴿۸﴾ ﴿۹﴾ ﴿۱۰﴾

1 _ الأغاني للأصفهاني 1 / 111 _ 112.

2 _ وفيات الأعيان لابن خلكان 512/1، وانظر نوادر في الأدب لمحمد المكي بن الحسين ص 31_32.

وقال النبي " في شأن المؤمنين وتالفهم: =مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى+. (1)

ثم إن للأمثال فوائد أخرى؛ فمن ذلك أن المثل يضرب للترغيب في المُمَثَّل به؛ حيث يكون مما تستحسنه النفوس، وترغب فيه.

ومن ذلك ما ضربه الله عز وجل لحال المنفق في سبيل الله؛ حيث يعود عليه الإنفاق بخير كثير فقال تعالى:
 البقرة: ٢١٧.

وقد يضرب المثل للتفكير من العمل؛ حيث يكون المُمَثَّل به مما تكرهه النفوس، وتنفر منه كما ضرب الله المثل لحال المغتاب فقال تعالى:
 الحجرات: ١٢.

ويضرب المثل لمدح المُمَثَّل؛ حيث يكون في الممثل به صفات تستحسنها النفوس، وتمدح من يحرز مثلها، كما ضرب الله مثلاً لحال الصحابة رضي الله عنهم فقال عز وجل:
 الحجرات: ١٢.

1 _ أخرجه البخاري (6011)، ومسلم (258).

① ② ③ ④ ⑤ ⑥ ⑦ ⑧ ⑨ ⑩ ⑪ ⑫ ⑬ ⑭ ⑮ ⑯ ⑰ ⑱ ⑲ ⑳ ㉑ ㉒ ㉓ ㉔ ㉕ ㉖ ㉗ ㉘ ㉙ ㉚ ㉛ ㉜ ㉝ ㉞ ㉟ ㊱ ㊲ ㊳ ㊴ ㊵ ㊶ ㊷ ㊸ ㊹ ㊺ ㊻ ㊼ ㊽ ㊾ ㊿ ① ② ③ ④ ⑤ ⑥ ⑦ ⑧ ⑨ ⑩ ⑪ ⑫ ⑬ ⑭ ⑮ ⑯ ⑰ ⑱ ⑲ ⑳ ㉑ ㉒ ㉓ ㉔ ㉕ ㉖ ㉗ ㉘ ㉙ ㉚ ㉛ ㉜ ㉝ ㉞ ㉟ ㊱ ㊲ ㊳ ㊴ ㊵ ㊶ ㊷ ㊸ ㊹ ㊺ ㊻ ㊼ ㊽ ㊾ ㊿

فالزرع يخرج شطأه، وهو ما تفرع في شاطئيه: أي جوانبه، ثم يقوى، ويستغلظ: أي يصير بعد الدقة غليظاً، وكذلك حال الصحابة؛ فإنهم كانوا في بدء الأمر قليلاً، ثم أخذوا في النمو حتى استحکم أمرهم، وامتلات القلوب؛ إعجاباً بهم.

ويضرب المثل للذم حيث يكون للممثل به صفة يستقبحها الناس، ويذمون من رضي لنفسه بمثلها، كما ضرب الله مثلاً لحال من آتاه الله كتابه، فنكت يده من العمل به، وانحط في أهوائه، فقال

تعالی : ① ② ③ ④ ⑤ ⑥ ⑦ ⑧ ⑨ ⑩ ⑪ ⑫ ⑬ ⑭ ⑮ ⑯ ⑰ ⑱ ⑲ ⑳ ㉑ ㉒ ㉓ ㉔ ㉕ ㉖ ㉗ ㉘ ㉙ ㉚ ㉛ ㉜ ㉝ ㉞ ㉟ ㊱ ㊲ ㊳ ㊴ ㊵ ㊶ ㊷ ㊸ ㊹ ㊺ ㊻ ㊼ ㊽ ㊾ ㊿

فقد مثل الله عز وجل في هذه الآية بحال الكلب الذي هو من أخبث الحيوان وأخسها نفساً؛ ذلك أن المنحط في أهوائه شديد اللهف على الدنيا، قليل الصبر عنها، فلهفه نظير لهث الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه.

وبالجملة فالكلام على أمثلة القرآن والسنة كثيرة جداً، والمقصود من ذلك بيان أن ضرب الأمثال سلاح ماضٍ في يد

الواعظ إذا أحسن استخدامه. (1)

37_ الحرص على الإعراب، والبعد عن اللحن قدر المستطاع: فالإعراب عماد الكلام، وجماله وَوَشْنِيْهِ؛ فيحسن بالواعظ أن يحرص على تقويم لسانه وأن يتجنب اللحن خصوصاً إذا كان يحيل المعنى؛ فالإعراب، وقلة اللحن يضيفان على الموعظة جمالاً، وقبولاً_ خصوصاً إذا كانت بين أناس يدركون ذلك_.

ولا يعني ذلك أن تصرف الهمة إلى الإعراب، أو أن يتكلف الإنسان ذلك أكثر من اللازم، أو ألا يلقي الواعظ موعظته إلا إذا كان متمكناً من الإعراب.

وإنما المقصود من ذلك السعي إلى الكمال قدر المستطاع.

38_ التذكير بمآلات الأمور: فمن الطرق المجدية في الوعظ تذكير الناس بما يصير إليه المتقون من عزٍّ وسلامة، وما يلحق المجرمين من خزي ومهانة وندامة.

ومن التذكير ما يرجع إلى البشارة بالخير في الدنيا، والحسنى في الآخرة، ومنه ما يرجع إلى الإنذار بسوء المنقلب في هذه الدار، أو عذاب الهون في تلك الدار.

وللبشارة والإنذار أثر كبير في حث المؤمنين على الحسنات، وردعهم عن السيئات.

وأثر البشارة والإنذار في غير المؤمن أنهما يدعوانه إلى النظر في الدعوة، وإذا نظر بروية أدرك أنها حق؛ فيفتح لها صدره، ويمد لها عنقه مدعناً. (2)

39_ اعطاء الوسائل صورة ما تُفضي إليه من الخير والشر: فهذا الأسلوب من الطرق الحكيمة في الحث على فعل الشيء، أو الزجر عنه.

ويشهد لذلك كثير من النصوص، منها قوله " =الذال على الخير

1 _ انظر كتاب الصناعتين ص 239 _ 259، ومحمد رسول الله ص 114، وبلاغة القرآن للشيخ محمد الخضر حسين ص 28_40.

2 _ انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص 111_112.

كفاعله+. (1)

فقد أراك الدلالة على فعل الخير في صورة فعل الخير نفسه؛ إذ جعلها بوسيلة التشبيه بمنزلة واحدة، وذلك مما يقوي داعية الدلالة على الخير في نفسك.

وكما قال " : = إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه+
 قيل: يا رسول الله! وكيف يلعن الرجل والديه؟
 قال: = يسب الرجل أبا الرجل فيسبُّ أباه، ويسب أمه، فيسب
 أمه+. (2)

فانظر كيف عدَّ سبَّ الرجل لأبي الرجل أو أمه في صورة سب
 الرجل لوالديه، وفي ذلك من تأكيد الزجر عن إطلاق اللسان
 بالسب ما لا تجده في النهي عن سب الناس بطريق غير هذا
 الطريق. (3)

40_ قرن القول ببعض الإشارات الحسية التي تناسب المعنى:
 فهذا مما يزيد به المعنى جلاءً، ويأخذ في النفس صورةً غير
 صورته المجردة عن الإشارة.

ولقد كان النبي " يستعين في تثبيت المعنى بالإشارة بيده إشارة
 مناسبة للمعنى، مما يجعل للموعظة أثراً بليغاً في النفوس.
 والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما جاء في الصحيحين عن أبي
 موسى عن النبي " قال: = إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه
 بعضاً+ وشبك بين أصابعه. (4)

وفي صحيح البخاري عن سهل ÷ قال رسول الله " = أنا وكافل
 اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى، وفرَّج بينهما
 شيئاً+. (5)

وعن ابن عمر _ رضي الله عنهما _ أن رسول الله " قام عند

1 _ أخرجه أحمد 274/5، وقال الألباني في صحيح الجامع: (33) = صحيح+، ورواه مسلم (1893) بلفظ = من دل على خير فله مثل أجر فاعله+.

2 _ أخرجه البخاري (5973)، ومسلم (90).

3 _ انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص 115.

4 _ البخاري (481 و 2446 و 6026)، ومسلم (2585).

5 _ البخاري (5304 و 6005).

باب حفصة فقال بيده نحو المشرق: =الفتنة من ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان+ قالها مرتين أو ثلاثاً. (1)

41_ توجيه السؤال للمخاطبين: وذلك بسؤالهم عن الشيء الذي يريد تعليمهم إياه، أو تذكيرهم به؛ لما في السؤال من تهيئة النفوس للإصغاء إلى ما يقال بعد ذلك، ولما فيه أيضاً من تشويقها إليه؛ فيقع منها في قرار مكين.

ولقد كان النبي " يأخذ بهذا الأسلوب كثيراً.

جاء في الصحيحين عن معاذ بن جبل ÷ أنه قال: =كنت رديف النبي " على حمار يقال له: عفير، فقال: يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟+.

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: =فإن حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً+.

فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس؟

قال: =لا تبشرهم فيتكلوا+. (2)

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، ومنها على سبيل الإجمال قوله " =أتدرون أي شهر هذا؟+. (3)

وقوله: =أتدرون أي يوم هذا؟+. (4)

وقوله: =أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟+. (5)

وقوله: =أتدرون ماذا قال ربكم؟+. (6)

وقوله: =أتدرون أين تغرب الشمس؟+. (7)

ومما يحسن التنبيه عليه أن هذا الأدب يليق إذا صدر من كبير لمن دونه، وإذا صدر ممن له مكانة، وقبول عند الناس عموماً، أو

1 _ رواه البخاري (3104 و 7093)، ومسلم (2905).

2 _ البخاري (2856)، ومسلم (30).

3 _ رواه البخاري (6043).

4 _ رواه البخاري (1741).

5 _ رواه البخاري (50).

6 _ رواه البخاري (4147).

7 _ رواه البخاري (4802).

عند مَنْ يلقي عليهم.

أما من كان في بداية وعظه، أو حداثة سنه، أو من ليست له مكانة عند من يلقي عليهم فقد لا يليق به هذا الأسلوب؛ لأن النفوس قد لا تستسيغ أن يوجه إليها السؤال من كل أحد.

42 استدعاء طلب البيان: وهذا الأسلوب قريب مما قبله.

وذلك أن يأتي الواعظ بالكلام على وجه الغموض يستدعي به طلب البيان، حتى إذا سئل عن ذلك، أو شعر بحاجة المخاطبين إلى الجواب أجاب عن ذلك، وكشف الغموض، فيتقرر المعنى في نفوسهم بأشد مما لو أتى من أول الأمر واضحاً بيناً. (1)

ومن هذا الباب قوله: " =انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً+.

فقال رجل: يا رسول الله! انصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره؟

قال: =تحجزه، أو تمنعه من الظلم؛ فإن ذلك نصره+. (2)

وفي رواية =تأخذ فوق يديه+. (3)

43 إثارة العواطف، ومخاطبة الوجدان: ذلك أن مرمى الإقناع في الوعظ ليس هو الإلزام والإفحام فحسب، وإنما مرماه حمل المخاطب على الإذعان، والتسليم بطوعه، وإرادته.

وذلك لا يتسنى بسوق الدلائل المنطقية جافة، ولا بإيراد البراهين العقلية عارية، بل بذلك وبإثارة العاطفة، ومخاطبة الوجدان.

بل قد يستغني الواعظ عن الدلائل العقلية، ولا يمكنه بأية حال أن يستغني عن المثيرات العاطفية؛ إذ هي من أعظم الأدوات التي تعينه على التأثير في السامعين. (4)

44 استعمال أسلوب النداء، ومناداة المخاطبين بما يحبون: وذلك بشد انتباه المخاطبين، واستدعاء استجابتهم بندايات يطلقها

1 _ انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص 116.

2 _ رواه البخاري (6952).

3 _ رواه البخاري (2444).

4 _ انظر الخطابة ص 53.

وقال: =يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج+. (1)
 وقال: =يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب!+. (2)
 وقال: =يا معشر النساء تصدقن+. (3)
 وقال: =يا معشر يهود أسلموا تسلموا+. (4)
 ومن اللطف في الموعظة أن ينادي الواعظ من يعظهم بلقبهم الشريف، وأن ينعتهم بوصف شأنه أن يبعث صاحبه على قبول الموعظة.

وهذا الأدب مقتبس من مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا كَمَا صَبَرْنَا بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ﴾ (١)
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا كَمَا صَبَرْنَا بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ﴾ (٢)
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا كَمَا صَبَرْنَا بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ﴾ (٣)
 وقوله: عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا كَمَا صَبَرْنَا بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ﴾ (٤)
 وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا كَمَا صَبَرْنَا بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ﴾ (٥)
 وقد وصف النبي " هرقل في كتاب دعوته إلى الإسلام بعظيم الروم. (5)

45 الجمع بين الخوف والرجاء: فلا بدّ للواعظ أن يجمع بين هذين الأمرين في موعظته؛ إذ هما جناحا العبادة، ولا تستقيم أحوال العباد إلا بالجمع بينهما، والواعظ الحكيم يحسن الجمع بينهما في موعظته؛ لأن الخوف يردعهم عن التماذي في المعاصي، والرجاء يفتح لهم أبواب التوبة، والإقبال على العمل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ×: =فلا يحل لأحد أن يَقْنَطَ من رحمة الله ولا أن يُقْنَطَ الناس من رحمته؛ لذا قال بعض السلف: وإن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله، ولا

1 _ رواه البخاري (5065).

2 _ رواه البخاري (7523).

3 _ رواه البخاري (304 و 1462).

4 _ رواه البخاري (6944).

5 _ انظر صحيح البخاري (2940 و 4553).

بل لابد من الرّويّة، والاستنارة بأقوال أهل العلم، واستشارة أهل الفقه والبصيرة، ولا بد من النظر في المصالح والمفاسد.

قال الشيخ السعدي X: =قوله: ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾

الأعلى: 9 مفهوم الآية أنه إذا ترتب على التذكير مضرة أرجح ترك التذكير؛ خوف وقوع المنكر+. (1)

وقال ابن القيم X: =فإذا كان إنكار المُنكَر يستلزم ما هو أنكر منه، وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه، ويمقت أهله+.

وقال: =ومن تأمل ما جرى في الإسلام من الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر، فطلب إزالته، فتولد منه ما هو أكبر منه؛ فقد كان رسول الله " يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها+.

بل لما فتح الله مكة، وصارت دار إسلام عزم على تغيير البيت، وردّه على قواعد إبراهيم، ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه، من عدم احتمال قريش لذلك، لقرب عهدهم بالإسلام، وكونهم حديثي عهد بكفر+. (2)

وقال X: =فإنكار المنكر أربع درجات: الأولى: أن يزول ويخلفه ضده

والثانية: أن يوقل، وإن لم يزل بالجملة.

الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله.

الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة محلُّ اجتهاد، والرابعة محرمة.

فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون الشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله كرمي النشاب، وسباق الخيل، ونحو ذلك. وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو، أو لعب، أو سماع مكاء

1 _ فتح الرحيم الملك العلام ص 164.

2 _ إعلام الموقعين لابن القيم 3 / 6.

وتصدية فإن نقلتهم إلى طاعة الله فهو المراد. وإلا كان تركهم على ذلك خيراً من أن تُفَرِّغَهُمْ لما هو أعظم من ذلك؛ فكان ما هم فيه شاغلاً لهم عن ذلك. وكما إذا كان الرجل مشغولاً بكتب المجون ونحوها، وخفت من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحر فدَعَّه وكتبه الأولى، وهذا باب واسع. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية _ قدس الله روحه ونورَ ضريحه _ يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار يقوم منهم يشربون الخمر؛ فأنكر عليهم مَنْ كان معي؛ فأنكرت عليه، وقلت له: إنما حرم الله الخمر؛ لأنها تصد عن ذكره وعن الصلاة، وهؤلاء يصددهم الخمر عن قتل النفوس، وسبي الذرية، وأخذ الأموال؛ فدَعَّهم. (1)

هذا وسيأتي مزيد بيان لهذا في الفقرة التالية. 47 تحديث الناس بما يعقلون: فمن السياسة والحكمة في الدعوة أن يخاطب كل قوم بما يفهمون، وأن يُتَّحَمَى مخاطبة أحدٍ بما لا يحتمله عقله؛ فذلك أدعى لقبول الموعدة، والبعد عن مواطن النفرة والتكذيب.

قال أمير المؤمنين علي ÷: =حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!+ (2). وقال ابن مسعود ÷: =ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.+ (3)

وقال ابن الجوزي x : =من المخاطر العظيمة تحديث العوام بما لا تحتمله عقولهم، أو بما قد رسخ في نفوسهم ضده.+ (4) وقال: =فالله الله أن تحدث مخلوقاً من العوام بما لا يحتمله دون احتيال وتلطف؛ فإنه لا يزول ما في نفسه، ويخاطر المحدث له

1 _ إعلام الموقعين 6 / 3 _ 7.

2 _ أخرجه البخاري (127).

3 _ أخرجه مسلم في مقدمة صحيحة (5).

4 _ صيد الخاطر ص74.

بنفسه+. (1)

ومما يعين على فهم السامعين، وعقلهم لما يلقي إليهم، ووقوعه في قرارات نفوسهم_ أن تكون الموعظة بألفاظ مأنوسة، وتأليف محكم، ومعان بارزة.

وهكذا كانت مواظب النبي " وخطبه؛ فهي مصوغة بألفاظ مألوفة، ومعان قريبة المأخذ.

وهي مع قرب معانيها من أذهان الجمهور قد حازت في مراقبي البلاغة الأمد الأسمى. (2)

قال أبو هلال العسكري x: =فمدار البلاغة على تخير اللفظ، وتخيره أصعب من جمعه وتأليفه+. (3)

وقال: =قال أبو داود: رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخير الكلام، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه+. (4)

ولهذا فإن الواظب البارع هو الذي يصوغ موعظته بما تحتمله العقول؛ فللعامة لغة، وللخاصة لغة، وللكبار لغة، وللصغار لغة، وللرجال لغة، وللنساء لغة، وهكذا، وقد مرَّ شيء من هذا القبيل في فقرة ماضية.

ومن تحديث الناس بما يعقلون أن تكون الموعظة ملائمة لكافة الطبقات؛ إذ هي تلقى على طبقات من الناس متفاوتة في العلم والفهم؛ فيحسن بالواظب ألا يتعرض في موعظته إلى المسائل التي قد يتعثر فهمها على كثير منهم، أو أن يتناولوها على غير وجهها.

وكانت خطب الرسول " جارية على هذا النحو؛ بحيث يستوي في فهمها الطبقات المختلفة دون أن يجدوا فيها ما ينبو عنه الفكر، أو يحار فيه العقل. (5)

ولقد كان الصحابة_ رضي الله عنهم_ يراعون هذا الأدب الحكيم؛

1_ صيد الخاطر 75.

2_ انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص185.

3_ كتاب الصناعتين ص23.

4_ كتاب الصناعتين ص58.

5_ انظر محمد رسول الله ص187.

فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال: =كنت أقرئ رجالاً من المهاجرين منهم عبدالرحمن بن عوف، فبينما أنا في منزله بمنى وهو عند عمر بن الخطاب في آخر حجة حجها إذ رجع إليَّ عبدالرحمن فقال لو رأيت رجلاً أتى أمير المؤمنين اليوم فقال: يا أمير المؤمنين هل لك في فلان يقول: لو قد مات عمر لقد بايعت فلاناً؛ فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة، فتمت.

فغضب عمر ثم قال: إني _ إن شاء الله _ لقائم العشيّة في الناس، فمحدّرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغضبوهم أمورهم قال عبدالرحمن: فقلت: يا أمير المؤمنين! لا تفعل؛ فإن الموسم يجمع رعاغ الناس وغوغاءهم؛ فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير، وأن لا يعوها، وأن لا يضعوها على مواضعها؛ فأمهّل حتى تقدّم المدينة؛ فإنها دار الهجرة والسنة فتخلص بأهل الفقه وأشرف الناس، فنقول ما قلت متمكناً، فيعي أهل العلم مقالتك، ويضعونها على مواضعها.

فقال عمر: أما والله _ إن شاء الله _ لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة+ الحديث. (1)

ومما يحسن في هذا الصدد أن يُبتعد عن مواطن الخلاف؛ فإن ذكره قد لا يناسب الموعظة؛ لأنها تُلقى على عامة، وقد يكون ذلك مضلّة لأفهامهم، مبعداً لهم عن الهدى.

48 _ الاعتدال في الطرح، والحذر من المبالغة وتضخيم الأمور: فيحسن بالواعظ أن يكون مُتزنّاً في طرحه بعيداً عن التهويل والتهوين؛ لأن الحقيقة تضيق بين ذلك، والعرب تقول في أمثالها: =خير الناس هذا النمط الأوسط.+

يعني بين المقصر والغالي. (2)
ومما يدل على حكمة الواعظ، ورجحان عقله، وحرصه على

1 _ البخاري (6830).

2 _ مجمع الأمثال للميداني 1/ 432.

الحقيقة لزومه الاعتدال، وألا يسرف في مدح ولا ذم، ولا في وعد ولا وعيد؛ فإن الإسراف مظنة الكذب، والاعتدال مظنة الصدق.

49_ انشراح الصدر للنقد الهادف: فالواعظ المخلص من يسعى لإرضاء الله جل وعلا فتراه يبذل كل سبب في سبيل نفع الناس؛ ابتغاء الأجر من الله؛ ولهذا لا تراهُ يتأذى من ملحوظة تقدم إليه ولو صاغها مقدّمها في جفاء وغلظة؛ بل تراهُ يفرح بالنقد الهادف كفرحه بالثناء الصادق، بل ربما طلب ذلك من غيره، وهذا مما يرفع قدره، ويرتقي بعلمه، ووعظه. وهذا هو دأب الأكابر والعظماء.

قال عمر بن عبدالعزيز لمولاه مزاحم رحمهما الله: = إن الولاية جعلوا العيون على العوام، وأنا أجعلك عيني على نفسي؛ فإن سمعت مني كلمة تربأ بي عنها، أو أفعالاً لا تحبها فعظني عنده، وانهني عنه+. (1)

50_ الإقبال على الله، وإحسان معاملته عز وجل: فذلك من أعظم الأسرار لنجاح الواعظ، ومن أكبر أسباب توفيقه وإعانتة، وإقبال الناس عليه.

قال أبو حازم x: = لا يحسن عبداً فيما بينه وبين الله تعالى إلا أحسن الله فيما بينه وبين العباد، ولا يعور (2) فيما بينه وبين الله تعالى إلا عور الله فيما بينه وبين العباد، ولمصانعة وجه واحد أيسر من مصانعة الوجوه كلها؛ إنك إن صانعت الله مالت الوجوه كلها إليك، وإذا أفسدت ما بينك وبينه شنأتك الوجوه كلها+. (3)

وقال ابن الجوزي x: = وإن قلوب الناس لتعرف حال الشخص، وتحبه أو تبابه، وتذمه، أو تمدحه وفق ما يتحقق بينه وبين الله تعالى فإنه يكفيه كل هم، ويدفع عنه كل شر. وما أصلح عبداً ما بينه وبين الخلق دون أن ينظر إلى الحق إلا

1 _ عيون الأخبار 18/2.

2 _ يعور: يهدم ويفسد.

3 _ سير أعلام النبلاء للذهبي 6 / 100.

انعكس مقصوده، وعاد حامده ذاماً+. (1)
 وقال x: =فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله، وعبقت
 القلوب بنشر طيبة، فالله الله في السرائر؛ فإنه ما ينفع مع فسادها
 صلاحُ ظاهر+. (2)

51_ احتساب الأجر: فالواعظ الناصح المخلص يلقي الموعدة
 من رضوان الله لا يلقي لها بالاً، وربما كانت سبباً لهداية ضال،
 أو ردع متماد، أو إنهاء متكاسل، أو فتح باب من أبواب الخير،
 أو إغلاق لباب من أبواب الشر؛ فإذا ألقى الناس السمع للواعظ
 أفادوا منه كل بحسبه.

ولا ريب أن الدال على الخير كفاعله، فكم من الأجور العظيمة
 المتنوعة التي ينالها الواعظ من جراء وعظه وتذكيره، وهذا مما
 يبعثه إلى مزيد من البذل، ومضاعفة الجهد.

52_ ألا ينتظر الواعظ الشكر إلا من خالقه: لا ريب أن شكر
 الناس من شكر الله، وأنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس.
 ولا ريب أن شكر المحسن على إحسانه مطلوب، وأنه مما
 تنتشرح له الصدور، وتزداد إقبالاً على إقبال.
 ولا أحد أحسن قولاً، ولا أولى بأن يشكره غيره من الداعي إلى
 الله؛ إذ هو الذي يقدم للناس حياتهم الحقّة.

فصلت: ١١١

ولكن قد يحصل في بعض الأحيان أن يُقَابَل الواعظُ بشيء من
 الجحود، والكنود، والجفاء.

فإذا مرت بك هذه الحال أيها الواعظ فلم تُنصَف، ولم تعط
 قدرك، وردّ عليك فضلك باليمين والشمال فلا يَكْبُرُ ذلك في
 صدرك ويحملك على ترك الوعظ، والنصح، بل قابل ذلك بصدر

1_ صيد الخاطر 108_ 109.

2_ صيد الخاطر ص355.

رحب، ونفس راضية، وانتظر الشكر من خالقك؛ فعملك هذا
 قال ابن حزم × بعد أن تحدث عن مذاهب الناس في طرد الهم:
 =وجدت العمل للأخرة - سالماً من كل عيب، خالصاً من كل كدر
 - موصلاً إلى طرد الهم على الحقيقة.

ووجدت العامل للأخرة إن امتحن بمكروه في تلك السبيل لم
 يهتم بل يسر؛ إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال عون له على ما يطلب،
 وزايد في الغرض الذي إياه يقصد.

ووجدته إن عاقه عما هو بسبيله عائق لم يهتم؛ إذ ليس مؤاخذاً
 بذلك؛ فهو غير مؤثر في ما يطلب.

ورأيته إن قصد بالأذى سرّاً، وإن تكبته نكبة سرّاً، وإن تعب فيما
 سلك فيه سرّاً؛ فهو في سرور أبداً، وغيره بخلاف ذلك أبداً؛ فاعلم
 أنه مطلوب واحد، وهو طرد الهم، وليس إليه إلا طريق واحد، وهو
 العمل لله تعالى.

فما عدا هذا فسخف وضلال. (1)

53_ الحذر من الورع الخادع الكاذب: ومن ذلك أن يدع الداعي
 الوعظ؛ حذراً من أن يخالط قصده الرياء، والتطلع للسمعة؛ فيقلص
 نور إخلاصه، ويفوته ثواب الله في الدار الآخرة.

ولا ريب أن شأن الإخلاص عظيم، وأن عليه مدار العمل.

ولكن ترك الدعوة بمثل هذا الوسواس ورغ خادع.

وما على الواعظ إلا أن يجاهد نفسه، وأن يأخذها بالإخلاص ما
 استطاع؛ فمخافة الرياء تجاه فائدة الدعوة إلى الخير لاغية؛ لأن تلك
 المخافة متوقعة، وفائدة الدعوة حاصلة - بإذن الله -؛ فلا تُقدّم المفسدة
 المتوقعة على الفائدة الحاصلة.

ولو ركن كلُّ داعٍ إلى هذا الخاطر لتعطلت الدعوة، ولقلت
 المجاهدة، ولظفر الشيطان بما أراد.

ومما يجدر التنبيه عليه أن الخوف من الرياء إنما يعظم في
 بدايات الإنسان الأولى؛ فإذا استمر على دعوته، ووعظه، ونفعه

للناس لم يكد ذلك خاطر يَمُرُّ على باله.
 وإليك هذه النصيحة الذهبية من إمام الوعظ في زمانه الإمام
 ابن الجوزي x حيث يقول: = ما زالت نفسي تنازعني بما يوجب
 مجلس الوعظ، وتوبة التائبين، ورؤية الزاهدين _ إلى الزهد
 والانقطاع عن الخلق، والانفراد بالآخرة.
 فتأملت ذلك، فوجدت عمومه من الشيطان؛ فإن الشيطان يرى
 أنه لا يخلو لي مجلس من خلق لا يحصون ويكون ويندبون على
 ذنوبهم، ويقوم _ في الغالب _ جماعة يتوبون، ويقطعون شعور
 الصبا، وربما اتفق خمسون ومائة.
 ولقد تاب عندي في بعض الأيام أكثر من مائة، وعمومهم
 صبيان قد نُشئوا على اللعب، والانهماك في المعاصي.
 فكأن الشيطان لبعد غوره في الشر _ رأني أُجذب إليّ من
 أُجذب منه؛ فأراد أن يشغلني عن ذلك بما يزخرفه؛ ليخلو هو بمن
 أُجذب من يده.
 ولقد حسن لي الانقطاع عن المجالس، وقال: لا يخلو من تصنع
 للخلق.
 فقلت: أما زخرفة الألفظ وتزويقها، وإخراج المعنى من مستحسن
 العبارة _ فضيلة لا رذيلة.
 وأما أن أقصد الناس بما لا يجوز في الشرع _ فمعاذ الله + (1)
 إلى أن قال x: = وأما الانقطاع فينبغي أن تكون العزلة عن
 الشر لا عن الخير، والعزلة عن الشر واجبة على كل حال.
 وأما تعليم الطالبين، وهداية المرئيين فإنه عبادة العالم.
 وإن من تغفيل بعض العلماء إثارة للتنفل بالصلاة والصوم عن
 تصنيف الكتاب، أو تعليم علم ينفع؛ لأن ذلك بذرُّ يكثُر ريعه، ويمتد
 زمان نفعه.
 وإنما تميل النفس إلى ما يزخرفه الشيطان من ذلك لمعنيين:
 أحدهما: حب البطالة؛ لأن الانقطاع عندها أسهل.
 والثاني: حب المدحة؛ فإنها إذا توسمت بالزهد كان ميل العوام

إليها أكثر.

فعليك بالنظر في الشرب الأول؛ فكن من الشرب المتقدم وهم الرسول " وأصحابه رضي الله عنهم. فهل نقل عن أحد منهم ما ابتدعه جهلة المتزهدين والمتصوفه من الانقطاع عن العلم، والانفراد عن الخلق؟! وهل كان شغل الأنبياء إلا معاناة الخلق، وحثهم على الخير، ونهيبهم على الشر؟!

إلا أن ينقطع من ليس بعالم بقصد الكف عن الشر؛ فذاك مرتبة المحتمى يخاف شر التخليط؛ فأما الطبيب العالم بما يتناوله فإنه ينتفع بما يناله+(1)

54 الحذر من اليأس: فربما بذل الواعظ نصحه، وحرص على هداية الناس.

وبعد ذلك قد لا يرى نتيجة الوعظ. وهذه فرصة الشيطان التي تجعله يلقي في روع الواعظ أن لا فائدة مما تقول، وأنه خير لك أن تدع الوعظ. فيحسن بالواعظ أن يتفطن لهذا المدخل، وأن يحسن ظنه بالله، وأن يستحضر أن الموعظة الحسنة والعمل الصالح عموماً لا يذهبان سدى.

فإذا لم تظهر النتائج عاجلاً ظهرت آجلاً، وإذا لم يذهب الشرُّ كلُّه خف وقَعُه، ولم يستطر شرُّه.

وربما لو ترك الوعظ والإرشاد لتمادي الغافلون. وكثيراً ما يستخف الناس بالأمر تلقى له الموعظة أو تؤلف فيه المقالة؛ فإذا تتابع الترغيب فيه، أو التحذير منه ولو من الناصح الواحد أخذ الناس يُعنون بشأنه، ويتداعون للعمل به، أو الإقلاع عنه.

وما سَطَع الإيمان في نفسٍ إلا كانت كالباد الطيب
 ✠☞☐○✠✠*⑥✠✠✠⑩ ✠☞☐○✠✠*⑥✠✠✠⑩ ✠☞☐○✠✠*⑥✠✠✠⑩ ✠☞☐○✠✠*⑥✠✠✠⑩
 ✠☞☐○✠✠*⑥✠✠✠⑩ ✠☞☐○✠✠*⑥✠✠✠⑩ ✠☞☐○✠✠*⑥✠✠✠⑩ ✠☞☐○✠✠*⑥✠✠✠⑩
 ؛ فابذر أيها الواعظ في النفوس من الحكمة والموعظة الحسنة ما شئت أن تبذر؛ فلا تُريك إلا نِيَّاتٍ

صالحه، وأعمالاً راضيةً.
ثم إن مبلغ جهد الإنسان إنما هو البلاغ، والهداية بيد الله _ عز
وجل _ .

قال _ عز وجل _ : ﴿ ١ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ﴾ الشورى: ١٧٧.

وقال: ﴿ ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ﴾ البقرة: ١٤٦.

وقال: ﴿ ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ﴾ الشورى: ١٧٧.

وقال: ﴿ ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ﴾ يونس: ١٠١.

55_ أن يستشعر الواعظ أنه هو المقصود الأول من موعظته،
وأنه مفنقر إلى الله _ عز وجل _ : فذلك يدعو إلى ربط القول
بالعمل، ويردعه عن التماذي في الإعجاب، ويبعته إلى الانطراح
بين يدي الله _ عز وجل _ وسؤاله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين.
كما أن ذلك يقوده إلى التواضع، والزراية على النفس.
وكل ذلك من أسباب توفيقه وتسديده.

فما أجمل أن يكون الواعظ كثير الانكسار والتذلل لله _ عز
وجل _ .

وما أروع أن يستحضر معنى قوله _ عندما يقول في مستهل
موعظته _ : =أوصيكم ونفسي بتقوى الله _ عز وجل _ +.

ولقد كان العلماء الربانيون العالمون بالله وبأمره _ عز وجل _
يأخذون بهذه السيرة؛ فتراهم يستشعرون بأنهم أولى الناس
بالتذكرة، وأنهم أخوف الناس على أنفسهم، وأرجاهم لغيرهم.

قال أبو حازم سلمة بن دينار x : =أفضل خصلة ترجى للمؤمن
أن يكون أشد الناس خوفاً على نفسه، وأرجاه لكل مسلم +. (1)
ويقول مخاطباً نفسه مرزياً عليها: =يا أعرجُ! ينادى يوم

1_ 2_ مواعظ الإمام سلمة بن دينار للشيخ صالح الشامي ص 17.

القيامة: يا أهل خطيئة كذا وكذا فتقوم معهم، ثم ينادي: يا أهل خطيئة كذا وكذا فتقوم معهم؛ فأراك يا أعرج تريد أن تقوم مع أهل كل خطيئة+. (1)

وقد رئي أبو الحسين الرازي ت 304 x في المنام بعد موته فقيل له:

ما فعل الله بك؟ فقال: = غفر لي بقولي عند الموت: اللهم إني نصحت الناس قولاً، وخنث نفسي فعلاً؛ فهب خيانة فعلي لنصح قولي+. (2)

وهاهو ابن الجوزي وهو من أكبر أئمة الوعظ يكثر البكاء على نفسه، واستشعار تقصيره في جنب الله _ عز وجل _ . يقول x: =إلهي! لا تعذب لساناً يخبر عنك، ولا عيناً تنظر إلى علوم تدلُّ عليك، ولا يداً تكتب حديث رسولك؛ فبعزتك لا تدخلني النار+. (3)

ويقول مبتهلاً إلى الله _ عز وجل _ =ارحم عبدة تترقرق على ما فاتها منك، وكبداً تحترق على بعدها عنك+. (4) وفي كتابه صيد الخاطر نماذج كثيرة من هذا القبيل، وإليك طرفاً منها، يقول x: =إخواني! لنفسي أقول؛ فمن له شربٌ معي فليرد: أيتها النفس! لقد أعطاك الله مالم تؤملي، وبلغك مالم تطلبي، وستر عليك من قبيحك ما لو فاح ضجت المشام، (5) فما هذا الضجيج من فوات كمال الأغراض أمملوكة أنت أم حرة؟! أما علمت أنك في دار التكليف؟!

وهذا الخطاب ينبغي أن يكون للجهال فأين دعواك المعرفة؟! أترأه لو هبت نفخة فأخذت البصر كيف كانت تطيب لك الدنيا؟!

2 _ البداية والنهاية لابن كثير 127/11.

3 _ ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب 422/1.

4 _ المرجع السابق.

5 _ المشام: الأنوف.

يرجو التمام.

وربما لاحت أسباب الخوف بنظري إلى تقصيري وزللي.
ولقد جلستُ يوماً فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف ما فيهم
إلا مَنْ رَقَّ قلبه، أو دمعت عينه فقلت لنفسي: كيف بك إن نجو
وهلكت؟! فصحت بلسان وَجْدِي : إلهي وسيدي! إن قضيت عليّ
بالعذاب غداً فلا تعلمهم بعذابي؛ صيانة لكرمك، لا لأجلي؛ لأن لا
يقولوا عَذَّبَ من دَلَّ عليه.

إلهي قد قيل لنبيك " اقتل ابن أبي المنافق فقال: = لا يتحدث
الناس أن محمداً يقتل أصحابه+(1)

إلهي! فاحفظ حسن عقائدهم في بكرمك أن تُعلمهم بعذاب الدليل
عليك(2)، حاشاك والله يارب _ من تكدير الصافي+(3)

وقال x في موضع آخر: =تفكرت في نفسي يوماً تفكراً مُحَقَّقٍ
فحاسبته قبل أن تحاسب، ووزنتها قبل أن توزن؛ فرأيت اللطف
الرباني.

فمنذ الطفولة وإلى الآن أرى لطفاً بعد لطف، وسترأ على قبيح،
وعفواً عما يوجب عقوبة، وما أرى لذلك إلا شكراً باللسان.
ولقد تفكرت في خطايا لو عوقبت ببعضها لهلكت سريعاً، ولو
كُشِفَ للناس بعضها لاستحييت.

ولا يعتقد معتقد عند سماع هذا أنها من كبائر الذنوب حتى يظن
في ما يظن في الفساق، بل هي ذنوب قبيحة في حق مثلي وقعت
بتأويلات فاسدة؛ فصرت إذا دعوتُ أقول: اللهم بحمدك وسترك
عليّ اغفرلي.

ثم طالبت نفسي بالشكر على ذلك فما وجدته كما ينبغي.

1_ رواه البخاري (3518)، ومسلم (6583).

2_ يعني ابن الجوزي نفسه.

3_ صيد الخاطر ص 397.

ثم أنا أتقاضى القدرَ مراداتي، ولا أتقاضى بصبر على مكروهه، ولا بشكر على نعمة؛ فأخذت أنوح على تقصيري في شكر المنعم، وكوني أتلذذ بإيراد العلم من غير تحقيق عمل به، وقد كنت أرجو مقامات الكبار فذهب العمر وما حصل المقصود؛ فوجدت أبا الوفاء ابن عقيل قد ناح نحو ما نحت؛ فأعجبني نياحته (1) فكتبتها ههنا. قال لنفسه: يا رعناء! تقوّمين الألفاظ؛ ليقال: مناظرٌ، وثمره هذا أن يقال: يا مناظر، كما يقال للمصارع: الفارة.

ضيعت أعز الأشياء وأنفسها عند العقلاء _ وهي آخر أيام العمر _ حتى شاع لك بين من يموت غداً اسم مناظر، ثم يُنسى الذاكر والمذكور إذا درست القلوب، هذا إن تأخر الأمر إلى موتك، بل ربما نشأ شابٌ أفره منك، فمؤهوا له، وصار الاسم له، والعقلاء (2) عن الله تشاغلوا بما إذا انطوا نشرهم (3)، وهو العمل بالعلم، والنظر الخالص لنفوسهم.

أفّ لنفسي! وقد سطرت عدة مجلدات في فنون (4) العلم، وما عقب بها ضيلة. (5)

إن نوظرت شمخت، وإن نوصحت تعجرت (6)، وإن لاحت الدنيا طارت إليها طيران الرّحم، وسقطت عليها سقوط الغراب على الجيف؛ فليتها أخذت أخذ المضطر من الميتة، توفر في المخالطة عيوباً تُبلى، ولا تحتشم نظراً الحقّ إليها، وإن انكسر لها غرضٌ تضجرت (7)، فإن أمدت بالنعمة اشتغلت عن المنعم.

1 _ يعني بكاءه على نفسه، ولومها لتقصيرها في جنب الله.
 2 _ يعني بهم: الذين يعقلون عنه أمره ونهيه.
 3 _ يعني إذا ماتوا أحياءهم، وجعل الناس يذكرونهم.
 4 _ لعله يشير إلى كتابه (الفنون) الذي بلغ ثمانمائة مجلد كما ذكر ذلك ابن رجب الحنبلي في كتابه ذيل طبقات الحنابلة 1/ 156.
 5 _ يعني أنه ما استفاد مما علم، ولم يعلق به شيء من ذلك، وهذا من تواضعه.
 6 _ يعني تكبرت واستكففت عن قبول الحق.
 7 _ يعني أن نفسه تضجر وتسخط إذا لم تأتها الأمور كما تريد.

أف والله مني، اليوم على وجه الأرض وغداً تحتها.
والله إن نَتَنَ جسدي بعد ثلاث تحت التراب أقل من نتن خلائقي
وأنا بين الأصحاب.

والله إنني قد بهرني جِلْمُ هذا الكريم عني؛ كيف يستُرني وأنا
أتهتك، ويجمعني وأنا أتشتت؟! وغداً يقال: مات الحبر العالم
الصالح، ولو عرفوني حق معرفتي بنفسي ما دفنوني.
والله لأناديين على نفسي نداء المُكثِّفين معائب الأعداء،
ولأنوحنَّ نوح الثاكليين للأبناء؛ إذ لا نائح لي ينوح علي هذه
المصائب المكتومة والخلال المغطاة التي قد سترها مَنْ خَبَرها،
وغطَّأها من علمها.

والله ما أجد لنفسي خَلَّةً استحسن أن أقول متوسلاً بها: اللهم
اغفر لي كذا بكذا.

والله ما التفتُّ قط إلا وجدت منه _سبحانه_ برأ يكفيني، ووقاية
تحميني مع تسلط الأعداء، ولا عَرَضَتْ حاجة فمددت يدي إلا
قضاها.

هذا فعله معي وهو ربُّ غني عني، وهذا فعلي وأنا عبد فقير
إليه!!

ولا عذر لي فأقول: ما دريْتُ، أو سهوتُ، والله لقد خلقتني خلقاً
صحيحاً سليماً، ونور قلبي بالفطنة، حتى إن الغائبات والمكنونات
تنكشف لفهمي.

فوا حسرتاه على عمر انقضى فيما لا يطابق الرضا، وا
جرماني لمقامات الرجال الفطناء، ياحسرتا على ما فرطت في
جنب الله، وا شماتة العدو بي، وا خيبة من أحسن الظن بي إذا
شهدت الجوارح عليّ، وا خذلاني عند إقامة الحجة.

سخر _والله_ مني الشيطان وأنا الفطن.
اللهم توبة خالصة من هذه الأقدار، ونهضة صادقة لتصفية ما

بقي من الأكدار، وقد جنتك بعد الخمسين وأنا من حَلَقِ المتاع،
وأبى العلم إلا أن يأخذ بي إلى معدن الكرم، وليس لي وسيلة إلا
التأسف والندم؛ فوالله ما عصيتك جاهلاً بمقدار نعمك، ولا ناسياً
لما أسلفت من كرمك؛ فاغفر لي سالف فعلي + (1)

فهذا كلام ابن عقيل _رحمه الله_ وهذه زرايته على نفسه مع
أنه هو هو في العلم والفضل والنفن، بل يكفي أنه كتب كتاب
(الفنون) الذي بلغ ثمانمائة مجلد. (2)

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية x وهو من هو في الزهد والعلم
والورع والعبادة والجهاد هاهو يضرب مثالا رائعا في المسكنة،
والافتقار، والتذلل لله _عز وجل_ .

يقول تلميذه العلامة ابن القيم x في معرض حديث له في منز
لة الخشوع في كتابه الماتع مدارج السالكين: =فلا شيء أنفع
للصادق من التحقق بالمسكنة، والفاقة والذل، وأنه لا شيء، وأنه
ممن لم يصح له بعد الإسلام حتى يدعى الشرف فيه.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية _قدس الله روحه_ من
ذلك أمراً لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيراً: مالي شيء، ولا
مني شيء، ولا في شيء، وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدي وابن المكدي وهكذا كان أبي وجدي
وكان إذا أنثي عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجيد
إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً.

وبعث إلي في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى
ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفقير إلى رب البريات أنا المسيكين في مجموع
أنا الظلومُ لنفسي وهي حالاتي

1 _ صيد الخاطر ص 736 _ 739.
2 _ انظر ذيل طبقات الحنابلة 156/1.

والخيرُ إن يأتنا من عنده يأتي
ولا عن النفس لي دفع
المضراتِ
ولا شفيعٌ إذا حاطت خطيئاتي
إلى الشفيع كما قد جا في
الآياتِ
ولا شريكٌ أنا في بعض
ذراتِ
كما يكون لأرباب الولاياتِ
كما الغنى أبداً وصفٌ له ذاتي
وكلهم عنده عبد له آتي
فهو الجهول الظلوم المشرك
العاتي
ما كان منه وما مِنْ بَعْدُ قد
يأتي (1)

ظالمتي
لا أستطيع لنفسي جَلْب منفعَةٍ
وليس لي دونه ربٌّ يدبرني
إلا بإذن من الرحمن خالقنا
ولست أملك شيئاً دونه أبداً
ولا ظهير له كي يستيعن به
والفقر لي وصفٌ ذاتٍ لازمٌ
أبداً
وهذه الحالُ حال الخلقِ
أجمعهم
فمن بغى مطلباً من غير
خالقه
والحمد لله ملء الكون أجمعه

الخاتمة

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، وبعد:
ففي خاتمة التطواف في تفصيل أدب الموعظة أتوجه بالشكر
إلى المولى _جل وعلا_ على تيسيره وإعانتة.
وأسأله _عز وجل_ أن يجعل هذا الكتاب خالصاً لوجهه، نافعاً
لعباده، موافقاً لسنة نبيه ".
وبعد شكر الله أشكر كل من أعان على هذا العمل بمشورة، أو
تصحيح، أو مراجعة، أو ما جرى مجرى ذلك، وأسأل الله أن
يجزيهم خير الجزاء وأن يجعل ذلك ذخراً لهم يوم يلقونه.
كما أعتذر للقراء الكرام إن كان هناك من إقبال، أو إملال،
وآمل منهم موافاة أخيهم بما يرونه من ملحوظة، أو زيادة فائدة.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على
نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.